

تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقاً

الجزء الثالث والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثالث والعشرون

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَاحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الجند : العسكر ، والمراد بهم الجند من الملائكة ، والنجود : انطفاء النصار ؛ والمقصود به الموت ، والحسرة على ما قال الراغب : الغم على ما فات ، والندم عليه ؛ كأن المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط الإعياء ، وإن : بمعنى ما ، ولما : بمعنى إلا ، محضرون : أى للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا غير مرة : إن تقسيم الكتاب الكريم إلى الأجزاء الثلاثين لوحظ فيه العَدَّ اللفظى لا الاتصال المعنوى ، إذ كثيراً ما تكون بداية الجزء فى أثناء القصة الواحدة كما هنا ، فإنه بعد أن بين حال الناصح الشهيد ودخوله الجنة - أردف ذلك بذكر حال المتخلفين المخالفين له ، ثم ذكر سنة الله فى أمثالهم فى العذاب الدنيوى ثم هم يُرَدُّون إلى ربهم فيعذبهم فى الآخرة .

الإيضاح

(وما أنزلنا على قومهم من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى وما أنزلنا على قوم هذا المؤمن الذى قتلوه لدعائه إياهم إلى الله ونصيحته لهم - من بعد مهلكه جنداً من الملائكة ، بل كان الأمر أيسر من ذلك . وإجمال المعنى : إنه انتقم من قومهم بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ، وما كاثرتهم سبحانه بالجنود وإنزال الملائكة ، بل كان أمرهم أهون من ذلك ، إذ ليس من سنته أن يكون عذاب الاستئصال بمجدد كثير من السماء .

ثم بين ما كان من هلاكهم بقوله :

(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) أى ما كان هلاكهم إلا بصيحة واحدة فإذا هم أموات لا حراك بهم ، قد ذهبت منهم حرارة الحياة كما تذهب حرارة النار حين الخمود .

وفى هذا إيماء إلى أن الحى كشعلة النار ، والميت كالرماد ، وإلى هذا يشير لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ويقول أبو الملاء :

وكأننا نرى الحياة فنرماد أو آخرها وأولها دخان
ولم يذكر لنا الكتاب الكريم كيف كانت الصيحة ولا كيف نزل بهم
العذاب ، وتفصيل ذلك لا يعنيننا ، فالعبرة تحصل بدون بيان ، إذ المراد انتقام الله
وعذابه لمن كذب أوليائه على أى نحو كان ذلك العذاب .

وفى هذا ما لا يخفى من تهوين أمرهم وتحقير شأنهم وتفخيم شأن رسل الله .
(يا حسرة على العباد) المراد بالعباد هنا مكذبو الرسل ، أى يا حسرتهم
وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب على تكذيبهم رسل الله ومخالفة أوامره .
ثم بين سبب الحسرة والندامة فقال :

(ما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى ما جاءهم رسول إلا استهزؤوا
به وكذبوه وجحدوا ما أرسل به من الحق .

والخلاصة : إن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين ،
جديرون أن يتحسروا على أنفسهم ، إذ فوّتوا عليها السعادة الأبدية وعرضوها لعذاب
مقيم ، وكأنه قيل : يا حسرة احضرى ، فهذه شدة لاسبيل للخلاص منها .

ولما بين حال الأولين نبه الحاضرين فقال :

(ألم يروا كم أهلكتنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟) أى ألم
يعتبروا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كماد وثمود ، وأنهم لا رجعة لهم
إلى الدنيا كما يعتقد الدهرية ، جهلا منهم بأنهم يعودون إليها كما كانوا .

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبين طريق ذلك ، أعقب هذا بأن لهم حساباً
وعقاباً فقال :

(وإن كل لما جميع لدينا محضرون) أى وإن جميع الأمم ماضيتها وحاضرها

وآتيها ستحضر يوم القيامة بين يدي الله فيجازيهم بأعمالهم خيرا وشرها ، ولو أن
من أهلك ترك لكان الموت راحة له ، وما أحسن قوله :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي

ولكننا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كُنَّا لَيُؤَفِّيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » .

والخلاصة — إن الناس يجمعون للحساب والجزاء ويوفى كل عامل جزاء
عمله من خير أو شر .

وآيَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ
الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء
على ما قدموا من عمل — أردف ذلك بما يدل على أن البعث ممكن وليس بمستحيل ،
وآية ذلك أن الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج ، ثم
ذكر أنه كان يحب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها وترك عبادة غيره مما
لا يجديهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً .

الإيضاح

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) أى ومن الأدلة على قدرتنا على البعث إحياء الأرض الهامدة التى لانبات فيها بإزالنا الماء عليها فإذا نزل اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فأخرجت الحب الذى هو قوت لكم ولأنعامكم وبه قوام حياتكم .

(وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما علمته أيديهم) أى وأنشأنا فى هذه الأرض التى أحييناها بساتين من نخيل وأعناب ، وجعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة تنتشر فيها ، ليأكلوا من ثمر الجنات ومما علمت أيديهم مما غرسوا وزرعوا .

ثم لما عدد النعم طلب منهم الشكر فقال :

(أفلا يشكرون ؟) أى أفلا يشكر هؤلاء القوم على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى .

ولما أمرهم سبحانه بالشكر ، وشكره تعالى بعبادته وقد تركوها وعبدوا غيره وأشركوا به سواه قال :

(سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) أى تنزيهاً لمن خلق هذه الأنواع كلها من الزرع والثمار ومختلف النبات ، وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً ، وخلق مما لا يعلمون من الأشياء التى لم يطلعهم عليها ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفتها تفصيلاً ، بل علمهم ذلك بطريق الإجمال بنحو قوله : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » ليستدلوا بذلك على عظمة الخالق وسعة ملكه وجلالة قدره .

والخلاصة — تنزه ربنا خالق هذا الخلق العظيم من نبات وحيوان وإنسان عن كل نقص ، وخالق ما لا نعلم من خلق ولا ندرك كنهه ولا نعلم حقيقته مما هو دليل على عظيم ملكه وواسع قدرته .

وَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

أصل السلخ : كشط الجلد عن الشاة ونحوها ؛ واستعمل هنا في كشف الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله ، مظلمون : أى داخلون في الظلام ، لمستقر لها : أى حول مستقر لها وهو مركز مدارها ، وقدرناه : أى صيرنا مسيره في منازل ، والمنازل واحدها منزل : وهو المسافة التى يقطعها القمر في يوم وليلة ، عاد : أى صار فى أواخر سيره وقربه من الشمس كالعرجون فى رأى العين ، والعرجون : هو العود الذى عليه الشاربخ ، فإذا أتى عليه الحول تقوس ودق واصفر .

قال أعشى بنى قيس :

شرق المسك والعبير بها فهى صفراء كعرجون القمر

ينبغى لها : أى لا يتيسر لها ، أن تدرك القمر : أى تجتمع معه فى وقت واحد فتدخله وتطمس نوره ، لأن لكل منهما دورة خاصة فى فلكه سيأتى ذكرها بعد ، والفلك : مجرى الكواكب ،سمى بذلك لاستدارته ، والسباحة الجرى فى الماء للسماك ونحوه ، ثم استعمل فى سير الكوكب فى الفضاء فى مداره الخاص .

المعنى الجملى

بعد أن استدلل على إمكان البعث والنشور بأحوال الأرض وما يطرأ عليها من تغير مما هو دليل القدرة الشاملة - أردف ذلك بذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس والقمر والأجرام السماوية ، وهى مخلوقات عظيمة واقعة تحت قبضته يتصرف فيها بعظيم سلطانه .

الإيضاح

(وآية لهم الليل نساخ منه النهار فإذا هم مظلمون) أى ومن آيات قدرته الدالة على إمكان البعث والحشر والنشر ، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء : الليل ينزع عنه النهار فتأتى الظلمة ويذهب النهار ، فإذا الخلق قد صاروا فى ظلمة بمجىء الليل الذى كان الضياء ساتراً له .

وفى الضياء سرور ولذة وراحة للنفس وسجى على الرزق ، وفى زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس ؛ كما أن فيه تركاً للعمل الذى به قوام الحياة ، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل ولم يجعلها مجىء النهار ، والآية تحصل بكل منهما .
والخلاصة — إن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه ، وفيه عبرة لمن يعى ويفهم ، وإن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه .

(والشمس تجري لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم) أى والشمس تجرى حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله على حسب وضعها النجمى ، فقد ثبت أن لها حركة رخوية حول هذا المركز تقدر بمائتى ميل فى الثانية ، وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده القابض على زمام مخلوقاته ، العليم بأحوالها الذى لا تخفى عليه خافية من أمرها .

(والقمر قدرناه منازل) أى وجعلنا لسير القمر منازل، وهى ثمانية وعشرون منزلاً ينزل فى واحد منها كل ليلة ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر، فإذا كان فى آخر منازلها دقّ وتقوس، وهذا ما يشير إليه قوله :

(حتى عاد كالرجون القديم) أى يسير فى منازلها إلى آخرها حتى يدقّ ويتقوس ويصفر ويكون كالعود الذى عليه الشماريح إذا أتى عليه الحول .

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) أى لا يصبح للشمس ولا يسهل لها أن تدرك القمر فى سرعة سعيه ، لأن الشمس تجرى مقدار درجة فى اليوم ، والقمر يسير مقدار ١٣ درجة فى اليوم ، ولأن لكل منهما مداراً خاصاً لا يجتمع مع الآخر فيه .

(ولا الليل سابق النهار) أى ولا تسبق آية الليل وهى القمر ، آية النهار وهى الشمس فيحل سلطانه محلها ، إذ أنهما يجريان بحساب منتظم لا يتغير ولا يتبدل .

(وكل فى فلك يسبحون) أى وكل من : الأرض والشمس والقمر يسبح فى فلكه كما يسبح السمك فى الماء ، فالشمس تجرى فى مدارها ، والأرض تجرى حول الشمس فى سنة وحول نفسها فى يوم وليلة ، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر .

وعلماء الفلك قديماً جعلوا الكواكب مركوزة فى الأفلاك على ما نراه فى كتبهم فليس للكواكب أن يسبح من تلقاء نفسه ، بل لابد له من حامل يحمله وهو الذى يدور به ، وكيف يسبح ما لآخرية له ولا قدرة له على السير بل هو محمول على غيره ؟ هكذا كان رأى عندهم ، ولكن رأى علماء الفلك المحدثين : أن جميع الكواكب تسير فى مدارات فى عالم الأثير ، فهى إذاً كأنها سمك فى بحر لجى .

فامعجب أيها القارىء الكريم للقرآن كيف أثبت ما دل على صحته الكشف

الحديث ودحض تلك الآراء التى كانت شائعة عصر التنزيل لدى علماء الفلك من اليونان والهند والصين .

وقد طلبت إلى الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الفلكى المصرى بحلوان أن يدلى إلى بما أثبتته علماء الفلك حديثاً فى النظريات التى تضمنتها الآيات ، فكتب إلى ما بلى :

الآية الأولى

من آيات الله وبديع صنعه تعاقب الليل والنهار دائبين . وقد جاء ذكر ذلك مراراً فى القرآن الكريم لما لهذه الظاهرة الفلكية من الأهمية العظمى فى حياة الجنس البشرى وكافة الأحياء التى على ظهر البسيطة ، فهى من الأمور الجديرة بالتفكير للاستدلال بها على عظمة الخالق جل شأنه ؛ فالليل يسلم من النهار والنهار يسلم من الليل ، نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، فتشرق الشمس على بعض الآفاق ، وتغيب عن البعض الآخر بانتظام تام بديع .

الآية الثانية

وزيادة على دوران الشمس الظاهرى وسط النجوم الناشئ عن دوران الأرض حول الشمس مرة فى السنة - ثبت لدى العلماء أخيراً أن للشمس حركتين أخريين حقيقتين :

أحدهما حول محورها مرة فى كل ست وعشرين يوماً تقريباً وتدلل عليها أرصاد كلف الشمس ؛ وهى نقط سوداء تظهر على سطحها بين حين وآخر ، وتتغير مواقعها بالنسبة إلى السطح ونقطع المسافة بين حافتى القرص فى زمن قدره ١٣ يوماً .

ثانيتها : دوران الشمس (ومن حولها توابعها الكواكب السيارة وأقمارها) حول مركز النظام النجومى بسرعة تقدر بنحو مائتى ميل فى الثانية ، فالشمس

واحدة من ملايين النجوم التي تتكوّن النظام النجمي ، والذي ثبت أنه يدور حول مركزه ، ونظرا لأن الشمس لا تقع عند مركزه فإن لها حركة دورانية .

والذي يفهمه الفلكي أو الرياضي من المستقر لجسم متحرك حركة دورانية ، أنه المحور الثابت الذي تكون الحركة حوله ، أو مركز المدار الدائري لهذه الحركة ، ففي الحالة الأولى يكون المستقر هو الخط الواصل بين قطبي الشمس ، وفي الحالة الثانية : يكون هو مركز النظام النجمي بأسره ، الذي تدور حوله الشمس وكافة النجوم الأخرى .

وإذا علمنا أن هاتين الحركتين الحقيقيتين للشمس لم تثبتا بالبرهان العلمي والأرصاد الفلكية إلا حديثا أدركنا ما في هذه الآية الكريمة من إعجاز عظيم .

الآية الثالثة

قسم الفلكيون القدماء النجوم التي تقع حول مدار القمر ثمانيا وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر ، وقد جاء ذكرها هنا وفي آيات أخرى كقوله تعالى « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ » .

ولما كانت الشمس تنتقل باستمرار وسط النجوم ، فتجذب عن الرؤية كل النجوم ومجموعات النجوم التي تكون موجودة فوق الأفق نهارا ، نجد أن ما يكون موجودا من منازل القمر فوق الأفق ليلا يتغير تدريجيا من ليلة إلى أخرى ، ومن شهر إلى آخر ، وهكذا نجد في معرفة مواقع القمر بالنسبة لهذه المنازل وسيلة لحساب الأوقات .

وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة والشمس ، وأسمائها هي : الشَّرَّاطَان ، البُطَيْن ، الثريا ، الدَّبْرَان ، الهَقْمَة ،

الهنة ، الذراع المبسوطة ، الثنرة ، الطرف ، جبهة الأسد ، الزبرة ، الصرفة ،
 العوا ، السمك الأعزل ، الغفر ، الزبانا ، الإكليل ، قلب العقرب ، الشولة ، النعائم ،
 البلدة ، سعد الذابح ، سعد بلع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، الفرع المقدم ،
 الفرع المؤخر ، الرشاء أو بطن الحوت .

وبعد أن يتم القمر دورته في مداره متنقلا بين منازل هذه يعود كما بدأ هلالا صغيرا
 مقوسا في بادي الشهر ، ويرى في ضوء الشفق بعد مغيب الشمس ، ويكون لونه
 مصفرا كمرجون النخل ، لأن مركبات ضوئه الأخرى تشتت في الطبقة الهوائية
 قبل وصولها إلى عين الراصد ، كما ترى لون الشمس مصفرا حين الشروق ، أو
 حين الغروب .

الآية الرابعة

المقصود هنا أن الله سبحانه بديع السموات والأرض جعل لكل من الشمس
 والقمر مدارا مستقلا يسبح فيه ، فلا يحجب أحدهما ضوء الآخر إلا نادرا حين
 ما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر .

فالشمس كما ذكرنا تدور حول الأرض في حركة ظاهرية تنشأ عن دوران
 الأرض حولها ، وهي تشبه ما يبدو للمسافر في القطار من حركة الأشجار وأعمدة
 التلغراف والقرى دون أن يحس بحركته المكتسبة من وجوده في القطار . وهكذا
 تتحرك الشمس وسط النجوم في مدار واسع نسبياً ، نصف قطره ٩٣ مليون ميل
 وتتم دورة كاملة في زمن مقداره سنة ، ويدل على هذه الحركة تنقلها وسط البروج
 بمعدل برج في كل شهر أو درجة واحدة تقريباً في كل يوم .

أما القمر فمداره حول الأرض أصغر نسبياً ، ويقدر طول نصف قطر مداره
 بحوالى ٢٤ ألف ميل يقطعه في شهر ، أى بمعدل منزل في كل يوم أو ١٣ درجة

في اليوم ، وحركته حول الأرض حركة حقيقية ، ويمكن ملاحظتها بسهولة من مراقبة موقعه بين النجوم ليلة بعد أخرى .

وفضلا عن ذلك فالمداران السابقان المذكوران ليسا في مستوى واحد ، بل يميل أحدهما على الآخر ، ولولا ذلك لتكرر كل من الكسوف والخسوف مرة في كل شهر ، وهكذا يتبين كيف إن لكل من : الشمس والقمر فلكا أو مدارا مستقلا يسبح فيه .

وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا سَخَّلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) .

شرح المفردات

الذرية : أصلها صغار الأولاد ، ثم استعملت في الصغار والكبار ، ويقع على الواحد والجمع ؛ وهي من ذرأ الله الخلق فتركت همزته نحو بركة ، الفلك : السفينة ، المشحون : المملوء ، ما يركبون : هي الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل ، فلا صريح : أي فلا مغيث لهم يحفظهم من الفرق .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه على سبيل المنة على عباده أنه أحيا الأرض وهي مكان الحيوان - أردف ذلك بذكر نعمة أخرى على الإنسان ، وهي أنه جعل له طريقا يتخذ في البحر ويسير فيه كما يسير في البر جلبا لأرزاقه وتحصيلا لأقواته من أقاصى البلاد في أنحاء المعمورة .

الإيضاح

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) أى ومن آيات قدرته الدالة على رحمته بعباده أن جعل أولادهم يركبون السفن الموقرة بسائر السلع التى ينقلونها من بلد إلى آخر ليستفيدوا مما تحمله من الأثوات وسائر حاجهم المعيشية ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب من بعده .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

(وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أى وخلقنا من مثل تلك السفن البحرية سفناً برية ، وهى الإبل التى تسير فى الصحارى كما قال شاعرهم :

* سفائن برّ والسرابُ بحارها *

ونحوها قطر السكك الحديدية والسفن الهوائية من مطاود وطائرات تسير فى الجوّ حاملة للناس السلع المختلفة والذخائر الحربية ، ومن جرّاء هذا لم يعين الكتاب الكريم ما يركبون لما سيظهر فى عالم الوجود مما هو مخبأ فى صحيفة الغيب ، وهذا من إعجاز الكتاب الكريم .

ونحو الآية : « وَالتَّحِيلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمِيرَ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَتَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

ثم ذكر لطفه بعباده حين ركوبهم تلك السفن فقال :

(وإن نشأ نفركهم فلا صريح لهم ولا هم ينقدون) أى وإن نشأ إغراقهم فى الماء مع ما حملته السفن والزوارق فلا مغيث لهم يحفظهم من الفرق وينجيهم من الموت ، ولكن رحمة منا بهم وتمتيعا لهم إلى حين بلذات الحياة الدنيا أبقيناهم وحفظناهم من الفرق ، وإلى هنا أشار بقوله :

(إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اطَّعِمُوهُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم أعرضوا عن النظر فى الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق - أردف هذا بذكر إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم مما فيه تحذيرهم بأن يحل بهم من المثالات مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم أعقبه بذهمهم على ترك الشفقة على خلق الله ، إذ قيل لهم أنفقوا فلم يفعلوا .

الإيضاح

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات : احذروا ما مضى بين أيديكم من نعم الله ومثلاته التى حلت بمن قبلكم من الأمم ، وخافوا أن يحل بكم مثلها من حراء شرككم وتكذيبكم لرسوله - وما خلفكم أى وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذى أنتم عليه ، لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات - أعرضوا ونأوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين .

ثم بين أن الإعراض ديدنهم وليس ببدع منهم فقال :

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) أى وما تنجى هؤلاء المشركين حجة من حجج الله الدالة على توحيده وتصديق رسوله إلا بادروا

بتكذيبها وأعرضوا عنها وتركوا النظر الصحيح المؤدى إلى الإيمان به ، ومعرفة صدق رسوله .

والخلاصة — إنه ما ظهرت لهم آية من الآيات الناطقة ببديع صنع الله وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا أعرضوا عنها مكذبين مستهزئين ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في صدقها والاستدلال بها على وحدانيته وصدق رسوله .

وبعد أن ذكر إعراضهم عن الخالق بين قسوتهم على المخلوقين فقال :

(وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) أى وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المساكين قالوا لمن طلب منهم ذلك : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم .

وفى قوله : مما رزقكم الله ، ترغيب فى الإنفاق على نهج قوله : « وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » وتنبيه إلى عظيم جرمهم فى ترك الامتثال للأمر ، وضم لهم على ترك الشفقة على عباد الله .

وإجمال ذلك — إنهم لم يعظمو الخالق ولم يشفقوا على المخلوق .

ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الأمر على الإنفاق ووصفوه بالضلال البين الذى لا شبهة فيه فقال :

(إن أنتم إلا فى ضلال مبين) أى ما أنتم أيها القوم فى قيلكم لنا أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم — إلا فى جور بين وبعدٍ عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر .

وهذا معذرة البخلاء فى كل عصر ومصر ، إذ تراهم دائماً يقولون : لانعطى من حرمة الله ، وتلك فرية منهم لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً ابتلاء منه لعباده ولأسباب نحن لانعلمها لا بخلاء منه وشحاً ، وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء ليس

لحاجة منه إلى ما لهم ، بل ليلوهم ويرى أيمتلون الأمر ويؤدون الواجب ، أم ينكصون على أعقابهم ويولون مدبرين ؟
ولا ينبغي لأحد أن يعترض على مشيئة ربه ، لأنه يجهل أسباب ما يشاهد ويرى في السكون .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) .

شرح المفردات

متى هذا الوعد : أى متى يتحقق ويحيى ما وعدنا به ؟ ينظرون : أى ينتظرون
صيحة واحدة : هى النفخة الأولى فى الصور ؛ بها يموت أهل الأرض جميعا ، ونفخ فى الصور : أى النفخة الثانية ، والأجداث : واحداها جدث (بفتحتين) القبر ، ينسلون : أى يسرعون ، والويل : الهلاك ، من مرقدنا : أى موتنا ، محضرون : أى للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن أمرهم بتقوى الله وخوفهم من أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من أمثالات — أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث واستعجالهم له استهزاء به وسخرية

منه ، ثم أتبعه ببيان أنه حق لاشك فيه وأنه سيأتيهم بغتة من حيث لا يشعرون ، وإذ ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ثم ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور حين يرون العذاب ويقولون : من أخرجنا من قبورنا ؟ فيجابون بأن ربكم هو الذى قدّر هذا ووعدكم به على السنة رسله وسيوفى كل عامل جزاء عمله .

الإيضاح

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء وإنكاراً متى يحصل هذا البعث الذى تهددوننا به تارة تصريحاً وأخرى تلويحاً ؟ إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من قبل أنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه ، الآمرة بالإيمان به .

فأجابهم ربهم :

(ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) أى ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعاً تأخذهم بغتة وهم يتنازعون فى أمور معاشهم لا يخطر ببالهم مجيئها .

ونحو الآية قوله : « فَأَخَذْتَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

روى ابن جرير عن ابن عمر قال : « لَيُنْفَخَنَّ فى الصور والناس فى طرقهم وأسواقهم ومجالسهم حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومانه ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ فى الصور فيصعق به وهى التى قال الله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) » .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَعَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرِّجْلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتْبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ »

الساعة والرجل يلبطُ حوضه فلا يسقى منه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نجسته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها .

ثم بين سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر أو هي أقرب فقال :

(فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) أى فلا يستطيعون أن يوصوا فى أموالهم أحدا ، إذ لا يملكون بذلك ، ولا يستطيع من كان منهم خارجا من أهله أن يرجع إليهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى ربهم .

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ فى الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور فقال :

(ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) أى ونفخ فى الصور نفخة ثانية للبعث والنشور ، والخروج من القبور ، فإذا هم جميعا يسرعون للقاء ربهم للحساب والجزاء .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ثم ذكر أنهم يعجبون حين يرون أنفسهم قد خرجوا من قبورهم للبعث ، كما حكى عنهم بقوله :

(قالوا يا ويلنا من بعثنا من مردنا ؟) أى قالوا يا قومنا انظروا هلا كنا وتعجبوا منه ، من بعثنا من قبورنا بعد موتنا ؟ حينئذ يحجبهم المؤمنون فيقولون لهم :

(هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) أى هذا الذى ترون ما وعد به الرحمن وصدق فى الإخبار به المرسلون الذين أتونا بوعد الله ووعيده .

وهم قد سألوا عن الفاعل للبعث وأجيبوا بالفعل تذكيرا لهم بكفرهم وتقريبا عليه مع تضمن ذلك الإشارة إلى الفاعل .

ثم بين سرعة بعثهم من القبور فقال :

(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) أى ما كانت

إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا نفخة واحدة فإذا هم مجتمعون لدينا قد أحضر واللعرض والحساب لم يتخلف منهم أحد .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « وَمَا أَمَرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » .

ثم بين ما يكون في ذلك اليوم من الحساب بالعدل والقسطاس فقال :

(فالיום لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى فى هذا اليوم وهو يوم القيامة لا تبخس نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، ولا يحمل عليها وزر غيرها ، بل توفى كل نفس أجر ما عملت من صالح ، ولا تعاقب إلا بما اكتسبت من طالح ، جزاء وفاقا لما عملت فى الدنيا .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا كِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) .

شرح المفردات

الشغل : الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤنه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصل مسرة كاملة أو مساءة عظيمة ، الفاكه : الطيب النفس الضحوك فإله أبو زيد ، والظلال : واحدها ظل وهو ضد الضح (ما تصيبه الشمس) والأرائك : واحدها أريكة ؛ وهى سرير منجد مزين فى قبة أو فى بيت ، يدعون : أى يطلبون .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن ذلك اليوم كائن لا محالة ، وأنه سيأتى بغتة من حيث لا يشعر به أحد ، فما هو إلا صيحة واحدة فإذا الناس خارجون من قبورهم ينسلون - أردف ذلك ببيان ما أعدّه للمحسن والمسيء فى هذا اليوم من ثواب وعقاب ، ليكون فى ذلك ترغيب فى صالح الأعمال ، وترهيب من فعل الفجور واجترار السيئات .

الإيضاح

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) أى إن من يدخل الجنة يتمتع بنعيمها ولذاتها ، ويكون بذلك فى شغل عما سواه ، إذ يرى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فأنى له أن يفكر فيها سواه ؟ وهو بذلك فرح مستبشر ضحك السن هادئ النفس ، لا يرى شيئاً يغمه أو ينقص عليه حبه وسروره .

ثم ذكر ما يكمل به تفكهم ويزيد فى سرورهم فقال :

(هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) أى هم وأزواجهم فى ظل لا يضيحون لشمس ، لأنه لا شمس فيها (وألذ شئ لدى العربى أن يرى مكاناً فيه ظل ظليل وأنهار جارية وأشجار مورقة) وهم فيها متكئون على السرر عليها الحجال (الناموسيات) وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من لذة لدى من نزل عليهم التنزيل .

وبعد أن ذكر ما لهم فيها من مجالس الأنس — ذكر ما يتمتعون به من ما كل ومشارب ولذات جسمانية وروحية فقال :

(لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) أى لهم فيها من الفواكه مالد وطاب مما تقر به أعينهم وتسر به نفوسهم كما هو شأن المترفين المنعمين فى الدنيا ، ولهم فوق ذلك كل ما يمتنون وتشاق إليه نفوسهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : ادع على ما شئت أى تمن على وتقول فلان فى خير ما ادعى أى خير ما تمنى .

ثم فسر الذى يدعون بقوله :

(سلام قولاً من رب رحيم) أى ذلك الذى يتمونه هو التسليم من الله عليهم تعظيماً لهم ، وهذا السلام يكون بوساطة الملائكة كما قال سبحانه : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » .

والسلام أمان من كل مكروه ، ونيل لكل محبوب ، وذلك منتهى درجات النعيم الروحى والجسمانى الذى تصبو إليه النفوس فى دنياها وآخرتها ، فكان هذا إجمال لما تقدم من اللذات التى فصلت فيما سلف .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَنْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ؟

شرح المفردات

امْتَازُوا : أى انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، والعهد : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى

الشیطان لأنه الأمر بها والمزین لها ، والجبل : الجماعة العظيمة ، اصلوها : أى فاسوا حرها ، وانتم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالحو ، فاستبقوا الصراط : أى ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أى فكيف يبصرون الحق ، ويهتدون إليه ؟ والمسح تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكاتهم : أى فى أما كنهم حيث يجترحون القبايح ، ونعمره : أى نطل عمره ، نكسه فى الخلق : أى تقلبه فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانقصا بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء أمره حتى يرد إلى أرذل العمر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما للمحسنين من نعيم واجتماع بالحقين والإخوان والأزواج فى الجنات — أعقبه بذكر حال المجرمين وأنهم فى ذلك اليوم يطلب منهم التفرق وابتعاد بعضهم من بعض ، فيكون لهم عذابان : عذاب النار وعذاب الوحدة ، ولا عذاب فوق هذا ؛ ثم أردف هذا بأنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا بما أرسل إليهم من الرسل الذين بلغوهم أوامر ربهم ونواهيهم ، ومنها نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباعه فيما يوسوس به ، ثم ذكر أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظا ما فيه مزدجر لهم لو تذكروا ، لكنهم اتبعوا وساوسه فخل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم فى الدنيا ، وفيه دليل على ما سيكون لهم فى العقبى ، ثم ذكر ما لأمهم وأنهم سيصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بما اكتسبت أيديهم ، وهم فى هذا اليوم لا ينطقون ببنت شفة ولا تقبل منهم معذرة ، بل تتكلم أيديهم بما عملت وتشهد أرجلهم بما اكتسبت ، ثم ذكر أنه رحمة منه بعباده لم يشأ أن يعاقبهم فى الدنيا بشديد العقوبات ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه ما قدروا ولا أبصروا ، ولم يشأ أن يمسح صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا ،

ولو أرادوا الرجوع ما قدروا ، ثم دفع معذرة أخرى ربما احتجوا بها وهي أن ما عروه قليل ، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل واهتدوا إلى الحق ، فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عَمَرُوا في السن ضعفوا عن العمل وقد عَمَرُوا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك كما قال : « أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ » ولكن ذلك ما كفاهم ، فهم مهما طال أعمارهم لا يجديهم ذلك فتىلا ولا قطميرا .

الإيضاح

(وامتازوا اليوم أيها الجرمون) أى تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار ، فلم يبق لكم اجتماع بالمؤمنين أبدا ، ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » وقوله : « وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤْمِنُ يَتَرَقَّبُونَ » وقوله : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأُولَآئِهِمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » .

ولما أمروا بالامتنياز وشخصت منهم الأبصار وكلحت الوجوه وتنكست الرؤوس قال سبحانه موبخا لهم :

(ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) أى ألم أوصمكم بما نصبت من الأدلة ومنحت من العقول ، وبعثت من الرسل ، وأنزلت من الكتب ، بيانا للطريق الموصل إلى النجاة — أن تركوا طاعة الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتي ومخالفة أمري .

ثم علل النهي عن عبادته بقوله :

(إنه لكم عدو مبين) أى إنه ظاهر العداوة لكم من جِراء عداوته لأبيكم آدم من قبل ، ولأنه يوبقكم في مهاوى الردى ، ويوقعكم في مزالق الهلاك .
ولما منع من عبادة الشيطان أمر بعبادته سبحانه فقال :

(وَأَنِ اعْبُدُونِي) وحدى وأطيعونى فيما أمرتكم به وابتهاوا عما نهيتكم عنه .
ثم بين أن ما أمر به ونهى عنه طريق معبد واضح لا لبس فيه ولا خفاء فقال :
(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى نهيتكم عنه من عبادة الشيطان ، وأمرتكم به
من عبادة الرحمن ، هو الصراط المستقيم ، لكنكم سلكتم غيره فوقعتم فى مزالق
الضلال ، وترديتم فى مهاوى الردى .

وبعد أن نهتهم إلى أنهم تقضوا العهد ونجهم على عدم اتعاظهم بغيرهم من أوقعهم
الشيطان فى الممالك ، وكانت عاقبتهم ما يرون من سوء المنقلب فى الدنيا
والآخرة فقال :

(ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) أى ولقد صد الشيطان منكم خلقا كثيرا عن
طاعتي وإفرادى بالألوهية فاتخذوا من دونى آلهة يعبدونها .
ثم زاد فى توبيخهم والإنكار عليهم فقال :

(أفلم تكونوا تعقلون؟) أى فلم يكن لكم عقل فترددوا عن مثل ما كانوا عليه
كيلا يحيق بكم من العذاب مثل ما حاق بهم .

وبعد أن أنبأوا ووُتِّحُوا بما سلف خوطبوا بما يزيدهم حسرة وألما فقليل لهم :
(هذه جهنم التى كنتم توعدون) أى هذه هى جهنم التى كنتم توعدون بها على
ألسنة الرسل والمبلغين عنهم إذا أنتم اتبعتم وساوس الشيطان ، وعصيتم الرحمن ،
وعبدتم من دونه الأصنام والأوثان ، واجترحتم الفسوق والعصيان .
ثم أمرهم أمر إهانة وتحقير لهم بقوله :

(اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أى احترقوا بها اليوم وقاسوا حرها الشديد
بسبب جحودكم بها فى الدنيا وتكذيبكم إياها بعد أن نهيتكم فلم تنتبهوا ، وأوقظتم
فلم تستيقظوا .

وخلاصة ذلك — إنه قد ذكر ما يوجب الحزن والأسى من وجود ثلاثة :

(١) إنه أمرهم أمر تنكيل وإهانة نحو قوله لفرعون : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » .

(٢) إنه ذكر لفظ (اليوم) الذى يدل على أن العذاب حاضر وأن لذاتهم قد مضت وبقى العذاب اليوم .

(٣) إن قوله بما كنتم تكفرون يرمى إلى أن هناك نعمة قد كانت فكفروا بها، وحياء الكفور من المنعم أشد ألماً وأعظم مضاضة كما قيل :

أليس بكاف لذى همة حياء المسيء من الحسن

ثم بين أنهم فى هذا اليوم لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم فقال :

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)
أى فى هذا اليوم ينكر الكافرون ما اجترحوا فى الدنيا من الشرور والآثام ويحلفون أنهم ما فعلوا كما حكى الله عنهم من قولهم : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيختم على أفواههم فلا تنطق ببنت شفة ، ويستنطق جوارحهم بما اجترمت من الفسوق والعصيان الذى لم يتوبوا عنه .

ونسب الكلام إلى الأيدى والشهادة إلى الأرجل ، من قبل أن الأولى لها مزيد اختصاص بمباشرة الأعمال ، ومن ثم كثر نسبة العمل إليهما فى نحو قوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ » وقوله : « وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ » وقوله : « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ » . ولا كذلك الثانية فكانت الشهادة بها أنسب ، إذ هى كالأجنبية منها .

وجاء فى الخبر : « يقول العبد يوم القيامة إني لا أجد علىَّ شاهداً إلا من نفسى ، فيختم الله على فيه ويقول لأركانہ : انطق ، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لکن وسخماً ، فعنكن كنت أناضل » .

وإذا كان المرء في دار الدنيا المملوءة أكاذيب ونفاقاً يخجل فيحمر وجهه، ويوجل فيصفر وجهه ويتخذ القضاة من ذلك أدلة على إدانة المتهم . كما نقص آثار أقدام اللصوص والجناة وتبعهم في السهل والجبل حتى إذا عثرنا عليهم قدمناهم للقضاة بشهادة هذه الآثار التي لا اشتباه فيها ، كذلك نختم بأصابع المجرمين على الورق (البصمة) فلا تشاكل يد يدأ ، مما يجعل لذلك أجل قيمة في خدمة العدالة .

وإذا كان هذا في عالمنا الجسدي فما بالك بعالم الأرواح التي يكون فيها لكل ذنب أو عمل حسن أثر في النفوس يولد فيها الخير أو الشر، حتى إذا انفصلت الأرواح من الأجساد ظهر ما انطبع فيها من خير أو شر؟ وإلى هذا يشير قوله تعالى ذا كراً حال الحساب يوم القيامة : « أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » فالنفس إذاً هي الكتاب الذي لا غش فيه ولا كذب ، فإذا صمت اللسان نطقت الجوارح كما تنطق آثارها اليوم ، أي تدل على المراد أفصح دلالة ، وترشد إلى المقصود أيما إرشاد ، وهذا هو الذي ينبغي أن يفهم في الآية الكريمة .

ثم بين سبحانه أنه قادر على إذهاب الأبصار ، كما هو قادر على إذهاب البصائر فقال :

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون) أى ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عمياً لا يبصرون طريقاً ، ولا يهتدون إلى شىء .

وإجمال المراد : لو شئنا لأذهبنا أحوالهم ، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه لم يستطيعوا ذلك .

ثم زاد في تهديدهم وتوبيخهم وبيان أنه قادر على منعهم من الحركة فقال :

(ولو نشاء لمسخناهم على مكاتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون) أى ولو أردنا لحولناهم عن تلك الحال إلى ما هو أقبح منها ، فجعلناهم قردة وخنازير وهم

في مساكنهم التي يجترحون فيها السيئات ، فلا يقدرّون على ذهاب ولا مجيء ولا غدوّ ولا رواح .

ثم شرع يقطع معذرة لهم ربما احتجوا بها وهي قولهم : إنهم لو عُمرّوا لأحسنوا العمل فقال :

(ومن نعمه تنكسه في الخلق) أي إنه كلما طال عمر المرء رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط .

(أفلا يعقلون ؟) أنهم كلما تقدمت بهم السن ضعفوا وعجزوا عن العمل ، فلو عُمرّوا أكثر مما عمرّوا ما ازدادوا إلا ضعفًا ، فلا يستطيعون أن يصلحوا ما أفسدوا في شبابهم ، وقد عمرّناهم مقدار ما يتمكنون من البحث والتفكير والتروّي في عواقب الأمور ومصايرها ، فلم يفعلوا ، وجاءتهم النذر فلم يهتدوا ، فهما طالت أعمارهم فلم يفيدهم ذلك ، ولن يصلح من حالهم قليلا ولا كثيرا .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩)
لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) .

شرح المفردات

وما ينبغى له : أي لا يليق به ولا يصلح له ، ذكر : أي عظة من الله وإرشاد للناقلين ، حيًّا : أي حتى القلب مستنير البصيرة ، يحق القول : أي يجب العذاب .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر أمر الوحداية في قوله : وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، وذكر أمر البعث في قوله : اصلوها اليوم — ذكر هنا الأصل الثالث ، وهو الرسالة في هاتين الآيتين .

الإيضاح

(وما علمناه الشعر) الشعر : ضرب من ضروب الكلام ذو وزن خاص ينتهي كل بيت منه بحرف خاص يسمى : قافية ، وهو يسير مع العواطف والأهواء ، ولا يتبع ما عليه العقل والمنطق الصحيح ؛ ومن ثم كان مستقرّ الأكاذيب والمبالغات في الأهاجي والمدائح والتفاخر والتنافر ، فإذا غضب الشاعر أقذع في القول وبالغ في الذم وضرب بالحقيقة عُرْض الحائط ، ولا يرى في ذلك ضيراً ، وإذا هو استَرْضَى بعد قليل رفع من هجاء إلى السّاكِين وأدخله في زمرة العظماء الشجعان أو الكرماء الأجواد إلى نحو هذا مما تراه في شعر الهجائيين المداحين حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا : (أعذب الشعر أ كذبه) .

والقرآن الكريم آداب وأخلاق ، وحكم وأحكام ، وتشريع فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم ، فرادى وجماعات ، فحاشى أن يكون شعراً ! أو أن يمت إليه بنسب .

فالمراد من نفي تعليمه الشعر نفي أن يكون القرآن شعراً ، لأن الله علمه القرآن وإذا لم يكن المعلم شاعراً لم يكن القرآن شعراً البتة .

وهذا رد لقولهم : إن القرآن شعر وإن محمداً شاعر ، ومقصدهم بهذا أنه افتراء وتخييلات وأباطيل ، وليس وحياً من عند الله .

(وما ينبغى له) أى ولا يليق به الشعر ولا يصلح له ، لأنه مبنى كما علمت على الركون إلى الأهواء تبعاً لفائدة ترجى ، أو شفاء للنفس من ضغائن الصدور ، أو كبتاً لسورة حقد أو حسد بحق أو باطل ، والشرائع والأحكام تنزه عن مثل هذا .

وما اتفق له عليه السلام دون قصد من نحو قوله يوم حنين وهورا كب بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث أخذ بزمامها :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلا يسمى شعراً ، لأن مثل هذا يقع في الكلام المشور ولا يسمى قائله شاعراً .
وقد صح « أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك ما لم تزود بالأخبار
فقال أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة
والسلام : إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لى .

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن الحسن « أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل
بهذا البيت :

* كفى بالإسلام والشيب ناهياً للمرء *

فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ، ما علمك الشعر وما ينبغي لك .
والخلاصة — إن الله تعالى كما جعل رسوله أمياً لتكون الحجة أنتم والبرهان
على المشركين أقوم ، كذلك منعه قول الشعر حتى لا يكون لهم حجة فى أن يُدَّعوا
عليه أن القرآن من المفتريات التى يتقولها والأباطيل التى ينمقها ، وليس يوحى من
عند ربه .

وبعد أن نفى عنه أنه شعر وتحيلات أثبت أنه مواعظ ونصائح فقال :
(إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) أى وما القرآن إلا مواعظ من ربنا يرشد بها
عباده إلى ما فيه نفعهم وهدايتهم فى معاشهم ومعادهم ، نزل من الملأ الأعلى ، وليس
من كلام البشر ، فقد تحدى المخالفين أن يأتوا بمثله فما استطاعوا ، فاجتئوا إلى
السيف والسنان ، وتركوا المفاولة بالحجة والبرهان .

ثم ذكر من ينتفع به فقال :

(لينذر من كان حياً) أى لينتفع بنذارته من كان حياً القلب مستنير البصيرة
يعرف مواقع الهدى والرشاد ، فيسترشد بهديه ، وليس له من صوارف الهوى ما يصدّه

عن اتباع الحق ، ولا من نوازع الاستكبار والإعراض ما يكون حائلا بينه وبين الهدى ، فهو يتوائب على الإقرار بالحق إذا لاح له بريق من نوره ، فتمتلى جوائبه إشراقا وضياء ، ويخر له مدعنا مستسلما ، وكأن طائفا من السماء نزل عليه فأثلج صدره ، وألان قلبه ، فاطمأن له وركن إليه ، وذلك من رزقه الله التوفيق والهداية ؛ وكتب له الفوز والسعادة .

و بعدئذ بين عاقبة من أعرض عنه فقال :

(ويحق القول على الكافرين) أى وتجب كلمة العذاب على الكافرين به الذين هم كأنهم أموات خللهم من النفوس الحساسة اليقظة التى من دأبها الإعراض والاستكبار عن اتباع الحق .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ؟

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الثلاثة على الترتيب : الوجدانية والحشر والرسالة - أعاد الكلام فى الوجدانية وذكر الدلائل عليها .

الإيضاح

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) أى أَوَلَمْ يشاهد هؤلاء المشركون بالله الأصنام والأوثان : أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ بقدرتنا وإرادتنا بلا معين ولا ظهير — أنعاما من الإبل والبقر والغنم يصرفونها كما شاءوا بالقهر والغلبة

فهي ذليلة منقادة لهم ، فالجارية الصغيرة إن شاءت أناخت البازل الكبير ، وإن شاءت ساقته وصرفته كما تريد كما قال العباس بن مرداس في وصف الجمل :

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غيرٌ لديه ولا نكير

ثم ذكر منافعها فقال :

(وذللتناها لهم ففنها ركوبهم ومنها يأكلون) أى وسخرنا لهم هذه الأنعام ، ففنها ما يركبون فى الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ، ومنها ما ينعرون ، فبأكلون لحومها وينتفعون بدهنها .

(ولهم فيها منافع ومشارب) أى ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها ، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار والحراثة وإدارة المنجثون (الساقية) ولهم منها مشارب من ألبانها وتاجها .

ثم حمى على الشكر على هذه النعم وتوحيد صانعها فقال :

(أفلا يشكرون) نعمتى عليهم وإحسانى إليهم بطاعتي وإمراى بالآلوهية والعبادة وترك وسوسة الشيطان ، بعبادة الأصنام والأوثان ؟

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ

نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ؛ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم كفروا بأنعم الله عليهم وأنكروها — أردف ذلك ببيان أنهم زادوا فى ضلالهم ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه

النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال تعالى حاكيا عنهم « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ » والحقيقة أنها لا هي ناصرة ولا منصوره .

الإيضاح

(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) أى واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة يعبدونها طمعا فى نصرتهم ودفع العذاب عنهم وتقرى بهم إلى الله زلفى . ثم بين بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم فقال :

(لا يستطيعون نصرهم) أى لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، فهى أضعف من ذلك وأحققر ، ولا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جاد لا تسمع ولا تعقل .

(وهم لهم جند محضرون) أى والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا ، وهم لا يسوقون إليهم خيرا ولا يدفعون عنهم ضرا .

والخلاصة — إن العابدين وهم للمشركون كالجند لحايتهم والذب عنهم فى الدنيا ، والعبودون يوم القيامة لا يستطيعون أن يقدموا لهم أقل معونة ، ولا يدفعون عنهم مضرة .

ثم سلى رسوله عما يلقاه من قومه من الأذى بنحو قولهم : هو شاعر وهو ساحر وهو كاهن إلى نحو ذلك من مقالاتهم التى كانوا يجابهون بها الرسول بإرادة تحقيره وإهائته فقال :

(فلا يحزنك قولهم) أى ولا يحزنك أيها الرسول قول هؤلاء المشركين من قومك : إنك شاعر وما جئتنا به شعر ، ولا تكذبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك . ثم ذكر أنه سيجازيهم على ما يضرهم فى نفوسهم ويتفوهون به بألسنتهم فقال : (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) أى إنا نعلم أن الذى يدعومهم إلى قيل ذلك

إنما هو الحسد ، وأنهم يعتقدون أن الذى جتّهم به ليس بشعر ولا يشبه الشعر ،
وأنتك لست بكذاب .

والخلاصة — إنا نعلم ما يسرون من معرفتهم حقيقة ما تدعوهم إليه ، وما يعلنون
من جحود ذلك بالسنتهم علانية ، وسنجزئهم وصفهم ونعامهم بما يستحقون يوم
يجدون جليل أعمالهم وحقيقتها حاضرا لديهم .

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧)
وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِى جَعَلَ
لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ
الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ (٨٣) .

شرح المفردات

أولم ير : أى أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ فى الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية ،
وضرب لنا مثلا : أى وأورد فى شأننا قصة عجيبة هى فى غرابتها كالمثل ؛ إذ أنكر
أحياءنا للعظام النخرة ، والرميم : كالرمة والرفات ، وبلى : كلمة جواب كنعم ؛ تأتى
بعد كلام منفى ، أمره : أى شأنه فى الإيجاد ، والملكوت : الملك التام كالرحوت
والرهبوت والجبروت ، والعرب تقول : جبروتى خير من رحمتى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في سلف الدلائل على عظم قدرته ووجوب عبادته و بطلان إشراكهم به بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث — أردف ذلك بذكر حجة من أنفسهم دالة على قدرته تعالى ومبطله لإنكارهم له ، ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا ، وقالوا : كيف ترجع الحياة إلى هذه العظام النخرة ؟ ، فأجابهم عن شبهتهم بأن الذى أنشأها أول مرة من العدم هو الذى يحييها ، وهو العليم بتفاصيل أجزائها مهما وزعت وتفرقت ، ثم ذكر لهم دليلاً آخر يرفع هذا الاستبعاد ، وهو أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء ، قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غصاً طرياً ثم يبس و بلى ، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان وفيه الدليل على قدرته ، وهو خلق السموات والأرض ، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سلف ، وفيه بطلان لإنكارهم ، فأبان أن كل شيء هين عليه ، فما هو إلا بقول (كن فيكون) تنزه ربنا ذو الملك والمالكوت عن كل ما يقول للمشركون ، فإنه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة : « جاء أبى بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم وهو يفتنه بيده ويذروه فى الهواء ويقول : أترعم يا محمد أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات من سورة يس (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) إلى آخرهن » .

الإيضاح

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى أو لا يستدل من أنكر البعث بسهولة المبدأ على سهولة الإعادة ، فإن من بدأ خلق الإنسان من

سلالة من ماء مهين ، ثم جعله بشرا سويا يخاصم ربه فيما قال : إني فاعل ، فيقول : من يحيي العظام وهي رميم ؟ إنكارا منه لقدرته على إحيائها — قادر على إعادته بعد موته وحسابه وجزائه على أعماله .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ . نَجْعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ » وقوله : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ » أى من نقطة من أخلاط متفرقة .

والخلاصة -- إنه تعالى خلق للإنسان ما خلق من النعم ليشكر فكفر وجحد النعم والنعم ، وخلق من نقطة قَدْرَةٌ مَذْرَةٌ ليكون متذللا ، فطغى وبغى وتجبر وخاصم ربه واستبعد البعث والإعادة .

(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟) أى وذكر أسرا عجيبا ينفي به قدرتنا على إحياء الخلق فقال : من يحيي العظام الرميم ؟ ونسى خلقنا له ، أفلم يكن نقطة نجعلناه خلقا سويا ناطقا ؟ ولا شك أن من فعل ذلك لا يعجزه أن يعيد الأموات أحياء ، والعظام الرميم شرأ كهيئتهم التي كانوا عليها قبل الفناء .

وإجمال ذلك — إن بعض المشركين استبعدوا إعادة الله ذى القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض الأجساد والعظام الرميعة ، ونسوا أنفسهم وأنه تعالى خلقهم من العدم ، أفهذا مما يُسْتَبْعَد وَيُجْحَد ؟

ونحو الآية حكاية عن المشركين : « وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » وقوله أيضا على طريق الحكاية « أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

وقد أسر الله رسوله أن يحییهم عن استبعادهم ويبكثهم بتذكيرهم بما نسوه من حقيقة أمرهم وخلقهم من العدم فقال :

(قل يحْيِيهَا الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) أى قل أيها الرسول لهذا المشرك القائل لك : من يحيى العظام وهى رميم ؟ يحْيِيهَا الذى ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئاً وهو العليم بالعظام ، وأين تفرقت فى سائر أقطار الأرض ؟ وأين ذهبت ؟ ، لا يخفى عليه شئ من أمر خلقه . فهو يعيده على النمط السابق والأوضاع التى كان عليها مع قواه السالفة .

وكان الفيلسوف الإسلامى المنقب بالفارابى يقول : وددت لو أن إرسطو وقف على القياس الجلى فى قوله تعالى : (قل يحْيِيهَا الذى أنشأها) الآية ، إذ تفصيله : الله أنشأ العظام وأحيها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئاً أولاً قادر على إنشائه وإحيائه ثانياً — ونتيجة هذا — الله قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانياً اه .

ولا شك أن الفارابى إنما يريد القياس الذى يفهمه اليونانى باصطلاحه المنطقى ، وإلا ففى الآية قياس فهمه العربى على أسلوبه فى التخاطب الذى يجرى عليه ويقتنع به ، ولكل أمة أساليب فى الإقناع والحجاج تسير عليها وتسلك سبيلها ، وقد اقتنع الكثير من العرب بما جاء به فى هذا ، ومن جحد فيما فعل ذلك عنادا واستكبارا . ثم ذكر دليلاً ثانياً يرفع استبعادهم ويبطل إنكارهم فقال :

(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) أى هو الذى بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار أخضر ناضراً ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، ومن فعل ذلك فهو قادر على ما يريد لا يمنعه شئ ، إذ من أحدث النار فى الشجر الأخضر على ما فيه من المائية المضادة للاحتراق ، فهو أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضاً فيس ولى .

ثم زكى ذلك بدليل ثالث على قدرته أعجب من سابقه فقال :

(أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) يقول تعالى منها هذا الكافر الذى قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟

إلى خطأ قوله وعظيم جهله بأن خلق مثلكم من العظام الرميم - ليس بأعظم من خلق السموات والأرض ، وإذا لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم منكم ، فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قدرمت و بليت ؟ .

والخلاصة إنه تعالى نبه إلى عظيم قدرته على خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وقفار وما بين ذلك ، وإلى أن الذى قدر على إيجاد هذه العوالم العظيمة - قادر على إعادة الأجساد بعد البلى .

ونحو الآية قوله : « تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمُتْ بِخَلْقَيْنَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف من تقرير واسع قدرته وإثبات عظيم سلطانه فقال :

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) أى إنما شأنه تعالى فى إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجادها : تَكُونُ فَيَتَكَوَّنُ ويحدث فوراً بلا تأخير .

وهذا ولا شك تمثيل لتأثير قدرته فيما يريد ، بأمر المطاع لمن يطيعه فى حصول المأمور به بلا توقف ولا افتقار إلى مزاوله عمل ولا استعمال آلة .

وبعد أن أثبت لنفسه القدرة التامة والسلطة العامة ، نزه نفسه عما وصفوه به ، وعجب السامعين مما قالوه فقال :

(فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء) أى تنزه ربنا الحى القيوم الذى بيده مقاليد السموات والأرض - عن كل سوء .

(وإليه ترجعون) أى وإليه يرجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بما عمل ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ونحو الآية قوله : « تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ » وقوله : « قُلْ مَنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، نسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تنير قلوبنا بالتبصر في فهم كتابك ، كما أنرت به قلوب عبادك الأبرار ، وأنبيائك الأخيار .

مقاصد سورة يس

- (١) بيان أن محمد صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله حقا ، وأنه نذير اللأميين وغيرهم .
- (٢) المندوبون من النبي صلى الله عليه وسلم صنفان : صنف ميثوس من صلاحه ، وآخر قد سعى لفلاحه .
- (٣) أعمال الفريقين تحصى عليهم ، فتحفظ أخبارهم ، وتكتب آثارهم .
- (٤) ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية ، إذ كذبوا الناصح لهم وقتلوه فدخلوا النار ودخل الجنة بما قدم من إيمان وعمل صالح وهداية وإرشاد .
- (٥) الدلائل الطبيعية والعقلية على البعث .
- (٦) تبيان قدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة .
- (٧) جزاء الجاحدين على كفرانهم أنعم الله عليهم ومسرعة أخذهم وندمهم حين معاينة العذاب .
- (٨) الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها .
- (٩) توبيخ الكافرين على اتباعهم همرات الشياطين .
- (١٠) قدرته تعالى على مستخدمهم في الدنيا وطمس أعينهم .
- (١١) الانتفاع بالأنعام في المأكل والمشرب والملابس .
- (١٢) إثبات البعث بما أقامه من أدلة في الآفاق والأنفس .

سورة الصفات

هى مكية بلا خلاف فى ذلك . نزلت بعد سورة الأنعام . وعدد آياتها ثلثان وثمانون ومائتان ، ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة التى أشير إليها إجمالاً فى السورة السابقة فى قوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » .

(٢) إن فيها تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة مما أشير إليه إجمالاً فى السورة قبلها .

(٣) المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها ، ذلك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى على المعاد وإحياء الموتى ، وعلل ذلك بأنه منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشئ كان ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك ، وهو وحدانيته تعالى ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة بإيجاد وإعدام إلا إذا كان المريد واحداً كما يشير إلى ذلك قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالَّتَالِيَاتِ ذِكْرًا (٣)
إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَارِقِ (٥) .

شرح المفردات

الصفات : هم جماعة الملائكة يقفون صفوفًا لكل واحد منهم مرتبة معينة فى الشرف والفضيلة ، والزاجرات زجرا : أصل الزجر الدفع عن الشئ بتسلط وصياح

ثم استعمل في السَّوق والحث على الشيء ، وفي المنع والنهي والمراد بها هنا الملائكة ، لأن لهم تأثيراً في قلوب بني آدم بزجرهم عن المعاصي وإلهامهم فعل الخير ، والتأليات ذكرها : هم الملائكة يحيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، والمشارك : هي مشارق الشمس بعدد أيام السنة ، فهي في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب في مغرب ، والمغارب كذلك متعددة تعدد المشارق ، ولم يذكرها اكتفاء بتعدد المشارق .

الإيضاح

أقسم سبحانه بالملائكة يتمون صفوفهم في مقام العبودية ، ويردعون الناس عن الشر بالإلهام ، ويتلون آياته على أنبيائه — إن معبودكم الذي يجب إخلاص العبادة له ، لواحد لاثنان له ولا شريك ، فأخلصوا له العبادة ، وأفردوه بالطاعة ، وهو خالق السموات والأرض وما بينهما من الخلق ، ومالك ذلك كله وقائم عليه .

وإجمال ذلك — إنه أقسم بملائكته الذين كملت أرواحهم وتجردوا لعبادته ، يسبحونه الليل والنهار لا يفترون ، ومحضون الناس على فعل الخير ، ويدفعون عنهم وسوسة الشيطان ، ويتلون آياته على أنبيائه حين نزولهم بالوحي — إن ربكم لواحد وهو رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغارب .

إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) .

شرح المفردات

الدنيا : مؤنثة الأدنى ؛ أى أقرب السموات من أهل الأرض ، والمارد والمريد ، المتعري عن الخير؛ من قولهم : شجرأمرد: إذا تعرى من الورق ، يسمعون : أى يتسمعون والملا : الجمعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا الملائكة ، يقذفون : يرمون ، والدحور : الطرد والإبعاد ، واصب : أى دائم ، والخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرة ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، والثاقب : المضىء .

الإيضاح

(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) أى إنا جعلنا الكواكب زينة فى السماء القريبة منكم بما لها من البهجة والجمال ، وتناسب الأشكال وحسن الأوضاع ، ولا سيما لدى الدارسين لنظامها ، المفكرين فى حسابها ، إذ يرون أن السيارات منها متناسبة المسافات ، بحيث يكون كل سيار بعيدا من الشمس ضعفاً بعد الكوكب الذى قبله .

(وحفظا من كل شيطان مارد) أى وحفظنا السماء أن يتناول لدرك جماها وفهم محاسن نظامها ، الجهال والشياطين المتمردون من الجن والإنس ، لأنهم غافلون عن آياتنا ، معرضون عن التفكير فى عظمتها ؛ فالعيون مفتحة ولكن لا تبصر الجمال ولا تفكر فيه حتى تعتبر بما فيه .

(لا يسمعون إلى إلا الأعلى) أى إن كثيرا من أولئك الجهال والشياطين محبوسون فى هذه الأرض ، غائبة أبصارهم عن الملأ الأعلى لا يفهمون رموز هذه الحياة ومعجائبها ، ولا ترق نفوسهم إلى التطلع إلى تلك العوالم العليا ، والتأمل فى إدراك أسرارها ، والبحث فى سر عظمتها .

(ويقذفون من كل جانب . دحورا) أى وقد قذفهم شهواتهم وطردتهم من كل جانب ، فهم تائهون فى سكراتهم ، تتخطفهم الأهواء والمطامع والعداوات

والإحس ، فلا يبصرون ذلك الجمال الذى يشرق للأحباء ، ويهر أنظار العماء .
ويتجلى للنفوس الصافية ويسجرها بعظمته ، وهم ما زالوا يدأبون على معرفة هذا السر
حتى ذاقوا حلاوته ، غرخوا ركما سجدا مذهونين من ذلك الجمال والجلال .
(ولهم عذاب واصب) أى وأولئك لهم عذاب دائم لتقصيرهم عن البحث
فى سر عظمة هذا الكون ، والوصول بذلك إلى عظمة خاتمه ، وبديع قدرته .

ثم بين من وفقهم الله وأنعم عليهم ممن ظفروا بالمعرفة فقال :

(إلا من خطف الخطة فأتبعه شهاب ثاقب) أى إلا من لاحت له بارقة من
ذلك الجمال ، وعنت له سائحة منه ، فتخطفت بصيرته كالشهاب الثاقب ، فغن إلى
مثلها ، وصبت نفسه إلى أختها ، وهام بذلك الملكوت العظيم باحثا عن سر عظمته ،
ومعرفة كنه جماله ، وهم من اصطفاهم الله من عباده ، وآتاهم الحكمة من لدنه ،
وأيدهم بروح من عنده ، وهم أنبياءه وأوليائه الذين أنعم عليهم من الصديقين
والشهداء والصالحين .

والخلاصة — إن الدنيا بيت فرشه الأرض ، وسقفه السماء ، وسراجها
الكواكب ؛ والبيوت الرفيعة العماد ، العظيمة البناء ، كما تزين بالأنوار تزين بالنقوش
التي تكسبها للألاء وبهجة فى عيون الناظرين ، ولكن لن يصل إلى إدراك تلك
الحاسن إلا الملائكة الصافون ، والأنبياء والعلماء المحلصون ، أما الجهال والسياطين
المتعمدون من الجن والإنس فأولئك عن معرفة محاسنها غافلون ، فلقد يعيش المرء
منهم ويموت وهو لا يدرك هذا الجمال ، إذ لا ينال العلم إلا عاشقوه ، وقد تبدو
لهم أحيانا بارقة من محاسن هذا الجمال ، فتخطف بصائرهم كالشهاب الثاقب ،
فيخطفون منها خطة يتبعها قيس من ذلك النور يضئ قلوبهم ، وينير ألبابهم ،
فيكونون ممن كتب الله لهم السعادة ، وقبض لهم التوفيق والهداية ، ومن اصطفاهم
ربهم برضوانه ، والفوز بنعيمه ^(١) .

(١) وقد نَحَوْنَا بهذا نحو آخر يخالف ما فى كثير من التفسير إذ أنهم قالوا إن خصف
الخطة كان من الشيطان حين أراد أن يسترق سمع ويأخذ أخبار السماء فأتبعه شهاب ثاقب
فأحرقه ولم يستطع أخذ شيء منها ، وعصم الله وجهه وكتابه .

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ
لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣)
وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)
أَيُّدًا مِثْنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)
قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)

شرح المفردات

فاستفتهم : أى فاستخبر مشركى مكة من قولهم : استفتى فلانا إذا استخبره وسأله
عن أمر يريد علمه ، أشد خلقا : أى أصعب خلقا وأشق إيجادا ، لازب : أى ملتصق
بعضه ببعض ، وأنشدوا لعلى بن أبى طالب :

تَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً وَأَخْلَقَ خَيْرَ كُلِّهَا لَكَ لَازِبُ

يسخرون : أى يستهزئون ، وإذا ذكروا لا يذكرون : أى وإذا وعظوا لا يسمعون ،
آية : أى معجزة ، يستسخرون : أى يبالغون فى السخرية والاستهزاء .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة بإثبات وجود الخالق ووحدانيته وعلمه وقدرته بذكر
خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب — وهنا أثبت الحشر
والنشر وقيام الساعة ببيان أن من خلق هذه العوالم التى هى أصعب فى الخلق منكم ،
فهو قادر على إعادة الحياة فيكم بالأولى كما جاء فى السورة السابقة « أَوَلَيْسَ الَّذِى
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » وجاء فى قوله : « نَخْلُقُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » .

الإيضاح

(فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا ؟) أى سل هؤلاء المكبرين للبعث :
أىً أصعب إيجاداً ، أهم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة
وال مخلوقات العظيمة ؟

والسؤال للتوبيخ والتبكيت ، فإنهم يقولون أن هذه المخلوقات أشد منهم خلقاً ،
أى وإذا فكيف ينكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا ، فإنهم
بالنسبة لهذه العوالم التى خلقناها ؟.

ثم زاد الأمر بيانا وأوضح هذا التفاوت فقال :

(إنا خلقناهم من طين لازب) أى إنا خلقنا أباهم آدم من طين رخو ملتصق
بعضه ببعض ، وفى هذا شهادة عليهم بالضعف والرخاوة دون الصلابة والقوة ، فإنهم
من كواكب السماء وعالم الملائكة وتلك العوالم المشرقة ؟ وإذا قدرنا أن نخلق تلك
العوالم العظيمة فهل يعجزنا أن نعيد ما هو مخلوق من طين لا يصلح للحياة إلا بإشراق
الأنوار عليه ، ووصول الآثار من العوالم الأخرى إليه .

ثم خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

(بل عجبتم ويسخرون) أى لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ،
ولا يتعجبون من تلك الدلائل ، بل مثلك من يعجب منها ، وهم يسخرون منك
ومن تعجبك ومما تريهم من الآيات .

والخلاصة — إن قلوبهم غُلُفٌ فلا تنظر فيما حولها من البراهين والآيات الدالة
على البعث ، ولا تقدر أن تنفذ إلى الإيقان به ، فغلهم عجب ، ويحق لك أن تكثر
التعجب منها ، فلقد بلغ من عنادهم وإصرارهم على إنكارهم أن يسخروا من مقالك ،
ومن اهتمامك بإقناعهم فى وجوب تسليمهم بالبعث والاعتقاد بحصوله .

(وإذا ذكروا لا يذكرون) أى هم لقسوة قلوبهم إذا وعظوا لاتنفعهم العظة ،

لأنه قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فإذا تفيد العبر أو تجدى الذكري مع قوم هذه حالهم ؟ .

ثم بالغ في ذمهم وشديد غفلتهم عن النظر في دلائل الحق فقال :
(وإذا رأوا آية يستسخرون) أى وإذا أقيمت لهم الأدلة والمعجزات التى ترشد إلى صدق من يعظمهم ويذكروهم بأيام الله ، نادى بعضهم بعضا متضاحكين مستهزئين :
هلموا وانظروا إلى ما يفعله ذلك الساحر الذى يخلب ألبابنا ، ويسلب عقولنا ، ويريد أن يصدنا عما كان يعبد آباؤنا ، وهذا ما أشار إليه حاكيا قولهم :

(وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين) أى وقالوا ما هذا الذى يأتينا به القينة بعد القينة مما يدعى أنه أدلة ظاهرة على صدق ما يدعيه — إلا الأعيب ساحر ، وخدعة أريب ماهر ، يريد أن يلفتنا عما كان يعبد آباؤنا ، وما هى من دلائل الحق فى شيء ، فإياكم أن تتخذوها ، وترجعوا عن الدين الحق الذى عليه آباؤكم ، وقد مرت عليه القرون ونحن له متبعون .

ثم خصصوا بعض ما ينكرون مما يدعيه من الحشر والبعث فقالوا :
(أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لبعوثون ؟) أى إنا لو تقبلنا منه بعض ما يقول وإن كان فيه ما يدهش العقول — لا تتقبل منه تلك المقالة ، وهى إحياء العظام النخرة والأجسام التى صارت ترابا ، إن هذه إلا إحدى الكبر ، فلا ينبغي أن توجه النظر إلى مثل هذه الآراء التى لا يقبلها العقل ، ولا يصل إلى مثلها الفكر ، ثم زادوا فى استبعادهم وعظيم تعجبهم وقالوا :

(أو آباؤنا الأولون ؟) أى أبعث آباؤنا الأولون أيضا ، وهذا أغرب لأن آباءهم أقدم منهم ، فبعثهم أشد غرابة وأكثر استبعادا .

وبعد أن حكى عنهم هذه الشبهة أجاب عنها بقوله :

(قل نعم وأنتم داخرون) أى قل لهم أيها الرسول : نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما ، وأنتم صاغرون أذلاء أمام القدرة الباقية .

ونحو الآية قوله : « وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ » وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

ثم بين سهولة ذلك أمام قدرة الله فقال :

(فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم قيام ينظرون) أى لا تستصعبوا البعث فإما يكون بصيحة واحدة بالنفخ فى الصور ، فإذا الناس قيام من مراقدهم أحياء ينظرون إلى ما كانوا يعدون من قيام الساعة .

وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْهِمُونَ (٢٦) .

شرح المفردات

قال الزجاج : انوبل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، والدين : الجزاء كما جاء فى قولهم « كما تدين تدان » ، والفصل : الفرق بين الحسن والسيء وتمييز كل منهما عن الآخر ، احشروا : أى اجمعوا ، وأزواجهم : أى أمثالهم وأشباهم ، فيحشر أصحاب النحر معاً ، وأصحاب الزنا كذلك ، واهدوهم : أى دلوهم عليها ، والصراط : الطريق ، والجحيم : النار ، وقفوهم : أى احبسوهم فى الموقف ، مسئولون : أى عن عقائدهم وأعمالهم ، لا تناصرون : أى لا ينصر بعضهم بعضاً ، مستسهمون : أى متقادون ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ويلزمه الانقياد عرفاً .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف إنكارهم للبعث فى الدنيا وشديد إصرارهم على عدم حدوثه — أردف هذا ببيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة إذا عاينوا أهوال هذا اليوم ، ويعترفون بأنهم كانوا فى ضلال مبين ، ويندمون على ما قرطوا فى جنب الله ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(وقالوا يا ويلتنا هذا يوم الدين) أى وقال أولئك المنكرون للبعث فى الدنيا حين رأوا العذاب : لنا الويل والهلاك فقد حلت ميعاد الجزاء ، وسنجازى بما قدمنا من عمل كما وعدنا بذلك على السنة الرسل فكذبناهم وسخرنا منهم ، وأنكرنا صدق ما قالوا .

ثم أقبل بعضهم على بعض يتناجون ويقولون :

(هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) أى هذا هو اليوم الذى يمتاز فيه المحسن بما قدم من عمل عن المسمى الذى دسّ نفسه بما ران على قلبه من الفسوق والعصيان ، ومخالفة أوامر الملك الديان ، وينال كل منهما جزاء ما عمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فيدخل الأول جنات النعيم على فرش بطائنها من إستبرق ، ويدخل الثانى فى سقر « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ » .

ثم ذكر خطاب الملائكة بعضهم لبعض فقال :

(احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله) أى تقول الملائكة للزبانية : احشروا الظالمين من كل مكان إلى موقف الحساب مع أشباههم وأمثالهم ، فاجملوا ذوى المعاصى المتشابهة ، بعضهم مع بعض ، فاجعلوا الزناة معا ، والآكلين لحوم الناس والناعشين لأعراضهم كذلك ، واجعلوا عابدى الأصنام

ومعبوديتهم من الأوثان والأصنام معا ، ليكون في ذلك زيادة لهم في الحسرة وعظيم التخييل على ما أتوه من عظيم الشرك وكبير المعصية .

ثم زادوا في تأنيبهم وتوبييخهم فقالوا :

(فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى فأرشدوهم إلى طريق جهنم ودلوهم عليها ، وفي هذا زيادة في النكاية بهم والازدراء بشأنهم ، إذ كانوا في الدنيا يزدرون المؤمنين ويتقحمونهم .

(وقفوهم إنهم مسئولون) أى واحبسوهم في الموقف ، حتى يسألوا عما كسبت أيديهم ، واجترحوها من الآثام والمعاصي وعن تلك العقائد الزائفة التي زينها لهم الشيطان ، فأضلتهم عن سواء السبيل .

وفي الأثر « لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن خمس : عن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله مم كسبه ؟ وفيم أنفق ؟ وعن علمه ماذا عمل به ؟ » ثم زادوهم تقريعاً وتمنيفاً فسألوهم :

(مالكم لاتناصرون ؟) أى لأى شيء لا ينصر بعضكم بعضاً وقد كنتم في الدنيا تزعمون أنكم تتناصرون ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر : نحن جميع منتصر .

وأخر سؤلهم إلى ذلك الحين ؛ إذ كان الوقت وقت تنجيز العذاب وشدة الحاجة إلى النصير والمعين ، وقد انقطع الرجاء منه ، فالتقرع حينئذ أشد وقعا وأعظم أثرا .
والخلاصة — إن الأمر يهديتهم إلى الجحيم إنما يكون بعد إقامة الحجج عليهم وقطع أعدارهم بعد حسابهم .

ثم ذكر أنهم لا ينازعون في الوقوف ولا في غيره ، بل ينقادون فقال :
(بل هم اليوم مستسلمون) أى بل هم منقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يمحيدون عنه ، إذ قد سدت أمامهم وجوه الخيل وعجزوا عن الوصول إلى السلام من أى طريق يلبتمسونها ، فلا فائدة في المنازعة ، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة .

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ
لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ (٣٠) خَفَقَ عَلَيْنَا قَوْلُ
رَبِّنَا إِنَّنا لَذَاقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ
فِي الْمَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا
إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُو
آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

عن اليمين : أى من جهة الخير وناحيته فتنهت عنه ، من سلطان : أى من قهر
وتسلط عليكم ، طآغين : أى مجاوزين الحد فى العصيان ، خفق علينا : أى وجب
علينا ، فأغوينناكم : أى دعوناكم إلى الغي والضلال .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أن الكافرين يتقدمون يوم القيامة على ما فرط منهم من
العناد والتكذيب للبعث حيث لا يجدى الندم — أردف هذا بذكر أنهم يتلاومون
فيما بينهم حينئذ ويتخاصم الأتباع والرؤساء ، فيلقى الأولون تبعه ضلالهم على
الآخرين ، فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا ، إذ كنتم قوما ضالين بطبيعة
حالككم ، وما ألزمنكم بشيء مما كنتم تعبدون أو تعتقدون ، بل تمنينا لكم من الخير
ما تمنينا لأنفسنا فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم ، ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم
فى هذا الذلل والهوان ، فبين أنهم قد كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد أعرضوا

عنها استكبارا وقالوا : أنترك دين آبائنا اتباعا لقول شاعر مجنون ؛ ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون ولا هو بالشاعر ، بل جاء بما هو الحق الذي لا يحصى من تصديقه وهو التوحيد الذي جاء به المرسلون كافة .

الإيضاح

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى وأقبل التابعون من الكفار ورؤسائهم المضلون لهم يسأل بعضهم بعضا سؤال تفرع وتعنيف على طريق الجدل والخصومة ، إذ أيقنوا أنهم هالكون لا محالة ، وأنهم صائرون إلى عذاب دائم فى النار ، فالتقى الأتباع مسئولية ما هم فيه على رؤسائهم فى الكفر والضلال ، وردّ الرؤساء عليهم حجبتهم بما جاء فى الآية بعد .

ثم فصل طريق التساؤل وكيف يحدث فقال :

(قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أى قال الأتباع لرؤساء الضلال والكفر : إنكم كنتم تمنعوننا عن فعل الخير وتصدوننا عن سلوك طريقه ، وترغبوننا فيما تدينون به وتعتقدونه ، ومن ثم أضللتهمونا وأوقعتمونا فى الهلاك الذى نحن صائرون إليه لا محالة .

فردّ الرؤساء عليهم وأجابوهم بجوابين :

(١) (قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) أى فردوا عليهم منكرين إضلالهم إياهم . قالوا : إننا ما أضللناكم ، بل أنتم كنتم بطبيعة أنفسكم مستعدين للكفر بما دسبتم به أنفسكم من أفعال الشرك والمعاصي ، إذ كنتم تشركون بالله سواه من الأوثان والأصنام ، وترتكبون من أنواع الفجور والآثام ما كان سببا فى الطبع على الأئمة والقلوب حتى لم تعرفوا للحق سبيلا ، ولا للخير طريقا .

(٢) (وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين) أى إننا على فرض إضلالكم وتزيين الكفر لكم ، لم نجبركم عليه ولم نسلبكم اختياركم ، فقلوبكم كانت محبة لما تفعلون ، مسرورة بما تأتون وما تذكرون ، مائلة إلى الكفر والمصيان ، تواقفة

للسير على سننه واتباع طريقته ، فما كان منا إلا أن دعوناكم لتؤمنوا بما اخترناه لأنفسنا ، وزينه الشيطان لنا ، ووسوس به إلينا ، فليتم دعوتنا مراعاة ، وسرتم فيما نحن فيه سائرون ، إذ كنتم لذلك مستعدين ، ومثله محبين ، فما كان منا إلا الدعوة ، وكانت منكم الإجابة ، باختياركم لأجبراءكم .
ثم ذكروا نتيجة لما تقدم فقالوا :

(فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون) أى ولأجل أنا بطبعنا كننا قوما طاعين ، والكفر وتدسية أنفسنا مستعدين ، وعن الإيمان بربنا معرضين - ثبت علينا وعيده بأننا ذائقو العذاب لا محالة ، إذ كان من عدله أن يجازى كل نفس بما كسبت ، ويثيبها بما عملت ، وهو الخبير بها وبما اجتريحت ، وهذا جزاء لا يحيص منه ، وهو نتيجة حتمية لما فعلنا باختيارنا واقتضاه استعدادنا ، فلا يلومن كل منا إلا نفسه ، ولا يلم بعضنا بعضا ، ولا داعى إلى الجدل والخصام وشد التكبر ، فلا ينحني من الشوك العنب ، ولا يعقب الضلال إلا النار ، عدلا من ربنا كما وعد بذلك على أسنة رسله وكنا بذلك عالمين ، ولكننا كننا عن الخير معرضين وعن اتباعه مستكبرين .

(فأغوياناكم إنا كنا غاوين) أى إنه لم يكن منا فى شأنكم إلا حينما أن تكونوا مثلنا وهو غير ملزم لكم . وإنما أضركم سوء اختياركم وقبح استعدادكم وهو الذى جعل مصيركم ما تشاهدون من العذاب التى وعدنكم به على أسنة الرسل .
وبعد أن ذكر حالهم أعتبه بذكر العذاب الذى سيحل بهم جميعا رؤساء ومرءوسين فقال :

(فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون) أى فإن الفريقين المتسائلين حينئذ مشتركون فى العذاب لا محالة ، كما اشتركوا فى الضلال والغواية ، وإن كان المغوون أشد عذابا ، لأنهم تحملوا أوزارهم وأوزارا مثل أوزار من أضلهم كما ثبت فى الحديث وقد تقدم ذكره مرارا .

ثم ذكر سبحانه أن هذا عدل منه على مقتضى سننه فقال :

(إنا كذلك نفعل بالجرمين) أى إن مثل ذلك الجزاء العظيم نفعل بالمشرمين وفقاً لما تقتضيه الحكمة ويوجبه العدل بين العباد ، فيعطى كل عامل جزاء ما قدمت يده ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم فصل بعض ما استحقوا لأجله العذاب فقال :

(إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) أى إنهم كانوا إذا لقنوا كلمة التوحيد نفروا منها وأعرضوا عن قبولها ، وصعروا خدودهم أفهة وكبرا أن يسمعوها .
وذكروا السبب الذى لأجله امتنعوا من استجابة دعوته :

(ويقولون أننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟) أى أنك عباد الآلهة التى ورثناها عن آبائنا كبرا عن كبر ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذى ؟ فثله لا يستمع لكلامه ، ولا يصغى لقوله :

وقد جمعوا فى كلامهم بين إنكار الوجدانية وإنكار الرسالة ، فإنكار الأولى فى استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد ، وإنكار الثانية فى قولهم : أننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :

(بل جاء بالحق وصدق المرسلين) أى إنه صلى الله عليه وسلم جاء بالحق الذى لا شك فيه وهو التوحيد الذى يثبت العقل ويؤيده البرهان ، وبمثله جاء الأنبياء السابقون ، فهو لم يكن بدعاً بين الرسل ، بل سار على شا كلتهم واتبع أنهجهم ، فكيف يكون من هذه حاله شاعراً أو مجنوناً ؟

إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ

مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) يَبْتَغَاءُ لَذَّةَ الشَّارِبِينَ
 (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ
 عَيْنٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ يَصْنَعُونَ (٤٩) .

شرح المفردات

بكأس : أى ببحر ، من معين : أى من نهر ظاهر للعيون جار على وجه الأرض
 لذة : أى ذات لذة ، غول : أى صداع ، ينزفون : أى لا تذهب عقولهم بالسكر
 كما ينزف الرجل ماء البئر وينزعه ، قاصرات الطرف : أى قصرن أبصارهن على
 أزواجهن لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ، عين واحدته عينا : أى واسعة العيون فى جمال ،
 المسكون المستور الذى لا تمسه الأيدي ولا يصاب بالغبار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل الضلال وإلقاء كل
 منهما تبعة ما وقعوا فيه من الملاك على الآخرين — بين هنا أن لافائدة من مثل
 هذا الخصام والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه
 بما يلقاه عباده المخلصون من النعيم المقيم والذات التى قصها علينا فى تلك الآية
 بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الإيضاح

(إنكم لذائقو العذاب الأليم) أى إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون
 العذاب الأليم الذى لا تنفك أوجاعه عنكم ، وما هو أبداً بمزاييلكم .
 ثم بين العلة فى لحوقه بهم فقال :

(وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل . وأسلفتم من معصية « وَمَا رَبُّكَ بِظَالَمٍ لِلْعَبِيدِ » .
وبعد أن أبان حال المجرمين، ذكر حال عبيد الله المؤمنين العاملين، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم فقال :

(إلا عباد الله الخالصين . أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون) أى
لكن عباد الله الذين أخلصوا له العمل وأنابوا إليه ، أولئك لهم جنات يتمتعون فيها
بكل مالد وطاب ، فيتمتعون بلذات الفواكه ذات الطعم الجليل والرائحة الشديدة ،
وتأتبهم وهم مكرمون كما تقدم للملوك المترفين وذوى اليسار فى الدنيا .
وفى ذلك إيماء إلى أن ما يأكلونه فى الجنة إنما هو للتفكه والتلذذ للقوت ،
لأنهم فى غنى عنه . لعدم تحمل شىء من أجسامهم بالحرارة الغريزية حتى يحتاجوا
إلى بدل منه .

وما جاء فى قوله : « وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ » فهو
بيان لأنواع ما يأكلون .

ثم بين المكان الذى يأتيهم فيه الرزق وذكر حالهم إذ ذاك فقال :
(فى جنات النعيم . على سرر متقابلين) أى إنهم يأتيهم ذلك الرزق وهم فى جنات
النعيم جانسين على سرر متقابلين ، ليأنس بعضهم ببعض ، ويتمتعوا بطيب الحديث ؛
وفى ذلك لذة روحية لا يدركها إلا ذوو النهى وأرباب الحجا .

وبعد أن ذكر صفة الماء كل والمسكن ذكر وصف الشراب فقال :
(يطاف عليهم بكأس من معين) أى وكما يتمتعون بطيب الماء كل يتمتعون
بجيد الشراب تكميلاً للنعمة كما هو حال العظماء فى الدنيا ، فيؤتى لهم بصنوف الخمر
على سبيل السعة والكثرة . كأنها تؤخذ من نهر جار فلا تقتير ولا بخل ، بل كلما
طلبوا وجدوا ، وفى ذلك إشارة إلى أنها رقيقة لطيفة ، وأنها ليست كحمر الدنيا تداس
بالأقدام كما قال شاعرهم :

وشمولة من عهد عادٍ قد غدت عَرَعى تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا فمكنت منهم فصاحت فيهم بالثار
(بيضاء لذة للشاربين) أى لونها مشرق حسن بهى لا يحمر الدنيا ذات المنظر
البشع واللون الأسود أو الأصفر، وألذى فيه كدورة إلى نحو ذلك مما ينقر الطبع السليم،
وهى لذیذة الطعم كما هى طيبة اللون وطيبة الريح، وقد وصفوا خمر الدنيا بالصفرة
كما قال أبو نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها نو مسها حبر مسسته سرّاء
وجاء وصفها بالحمرة قبل المزج، والصفرة بعده كما قال :
وحمرء قبل المزج صفراء بعده أنت فى ثيابى زرجس وشقائق
حكّت وجنة المحبوب صرّافا فسلطوا عليها مزاجا فاكتست لون عاشق
ثم زاد فى مدحها وامتیازها عن خمر الدنيا فقال :

(لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) أى هى لا تؤثر فى الأجسام كما تؤثر خمر
الدنيا، فلا تصدع الرأس، ولا تفسد العقل بالسكر كما يكون فى خمر الدنيا كما قال :
ما زالت الكأس تنمنا لنا وتذهب بالأول الأول
والخلاصة — إنه ليس فيها شيء من أنواع المفسدات التى تكون حين شرب الخمر
فى الدنيا، فهى لا تحدث صداعا ولا حاراً ولا سكرًا ولا عربة ولا نحو ذلك مما هو
لازم لخمر الدنيا .

ثم ذكر محاسن زوجاتهم ليكون فى ذلك تكميم لبيان ما آتاهم ربهم من
الدعم فقال :

(وعندهم فاصرات الطرف عين) أى ولديهم نساء عفيفات لا ينظرن إلى غير
أزواجهن، واسعات العيون فى جمال .

ثم زاد بياناً فى وصف جمالهن بما شبههن به فقال :

(كأنهن بيض مكنون) أى إنهن فى بياض يشوبه قليل من الصفرة كالبيض المستور فى الأعشاش الذى لم تمسه الأيدى ولم يعله الغبار ، وهذا اللون مما تهم به العرب ، فقد شبهت النساء ببيضات الخدود كما قال امرؤ القيس :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهن بها غير مُعجل

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ نَأْتِلُ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ (٥٤) فَأَطَاعَ قَرَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ عِيتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١)

شرح المفردات

قرين : أى خليل وصاحب ، لمدِينون : أى لجزيون ، مطلعون : أى مشرفون فناظرون إلى أهل النار ، سواء الجحيم : أى وسط النار ، لتردين : أى تهلكنى ، من المخضرين : أى المسوقين للعذاب .

المعنى الجلى

بعد أن ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من النعيم المقيم ، ثم ذكر سرورهم وحبورهم فى المآكل والمشرب وجميل المساكن والأزواج الحسان — بين هنا أنهم

خلقوا بالهم من المشاغل ، وطيب نفوسهم يشمر بعضهم مع بعض ويتحدثون فيما كانوا فيه في الدنيا مع أخلائهم من شتى الآراء ، مع اختلاف الأهواء ، حتى ليقص بعضهم على بعض أن خليله كاد يوقه في الهلاك لولا لطف ربه به ، وقد كان مآله أن صار في سواء الجحيم ، ثم ذكر نعمة ربه عليه بسبب ما كان يدين به في الدنيا .

الإيضاح

(فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أى يطفأ عليهم بكأس من معين ، فيشربون ويتحدثون على الشراب ، وما ألد الحديث لدى الأحلاء إذ ذاك ؛ كما أفصح عن ذلك شاعرهم :

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على الشراب
ولشمتك وجنتي قر منير يحول بوجهه ماء الشباب

والحديث ذو شجون ، فهم يتحدثون في شتى الفضائل والمعارف وفيما سلف لهم من شئون الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات حين رفاهية الحال ، وفراغ البال ، وإطمئنان النفس ، وخلوها من الخواف العاجلة والآجلة .

ثم فصل هذا التساؤل وبينه فقال :

(قال قائل منهم إني كان لى قرين . يقول أئمتك لمن المصدقين ؟ أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ؟) أى قال قائل من أهل الجنة : إني كان لى قرين في الدنيا يوحىنى على التصديق بالبعث والقيامة ويستنكره أشد الاستنكار ويقول متمجبا : أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لحاسبون بعد ذلك على أعمالنا وما قدمته أيدينا ؟ ألا إن ذلك لا يدخل في باب الإيمان ولا يقبله عاقل ، فأجدر بمن يصدق بمثل هذا أن يعد من البله والجانين الذين لا ينبغي مخاطبتهم ولا الدخول معهم في باب الجدل والحصام ، فهم ساقطون من درجة الاعتبار لدى العقلاء والمنصفين .

وبعد أن ذكر مقالته لأهل الجنة أراد أن يؤكد لهم صدق ما قال ، ويريهـم ما آل إليه أمره من الدخول في النار فقال :

(قال هل أنتم مطلعون) أى قال جلسائه من أهل الجنة ، ليزيدهم سرورا على أن عصمهم الله من مثل حاله ووقفهم إلى العمل بما أرشد إليه أنبيأؤه ، هل تودون أن تروا عاقبة ذلك القرين ؟ وكيف خذله الله وأوقعه في الهلكة ؟

وإننا لانحوض في كيفية الاطلاع إذ ذاك مع شاسع المسافات ، واختلاف مراتب أهل الجنة وأهل النار — فإن ذلك من أمور الغيب التى يجب أن تؤمن بها دون بحث في شأنها ، ولا نقص ولا زيادة فيها .

(فاطلع فرآه في سواء الجحيم) أى فاطلع إلى أهل النار فرأى قرينه في وسطها يتلظى بحرها وشديد لهبا .

(قال تالله إن كدت لتردين) أى قال لقرينه موبخا له : إنك لقد كدت تهلكنى بدعائك إياى إلى إنكار البعث والقيامة .

(ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) أى ولولا فضل ربى بإرشاده لى إلى الحق ، وعصمتى من الباطل ، لكنت مثلك من المحضرين للعذاب .

ثم ذكر ما يقوله ذلك المؤمن جلسائه تحدثا بنعمة ربه عليه واعتباطا بحاله بسماع من قرينه ، ليكون توبيخا له فيزيد به تعذيبه .

(أفأنا نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) أى يقول لهم : أنحن نخلدون منعمون ، فما نحن بميتين ولا بمعذبين إلا موتتنا الأولى ؟ بخلاف الكفار فإنهم يموتون مثلنا ، ثم هم في جهنم يتمنون الموت كل ساعة . ولا يخفى ما في ذلك من سوء الحال ؛ وقد قيل للحكيم : ما شر من الموت ؟ قال الذى يتمنى معه الموت .

والخلاصة — إن المؤمن غبط نفسه بما أعطاه الله من الخلد في الجنة ، والإقامة في دار الكرامة ، بلاموت فيها ولا عذاب .

وَعِلْمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ جَاءَ مِنْ إِبْخَارِ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِذَلِكَ :
وَفِي نَفْيِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ إِيمَاءٌ إِلَى اسْتِمْرَارِ النِّعَمِ ، وَعَدَمِ خَوْفِ زَوَالِهِ ، فَإِنْ خُوفُ
الزَّوَالِ نَوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ كَمَا قَالَ :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا حَيَاةَ هَنِيئَةٍ فَلَا تَتَّخِذْ شَيْئًا تَخَافُ لَهُ فَقْدًا

وَالِى نَفْيِ الْهَرَمِ وَاسْتِثْلَالِ الْقُوَى ، لِأَنَّهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعَذَابِ أَيْضًا .

ثُمَّ زَادَ فِي تَأْنِيْبِ قَرِينِهِ وَزِيَادَةِ حَسْرَتِهِ فَقَالَ :

(إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أَيْ إِنْ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نِعَمٍ مُقِيمٍ مَعَ تَمَتُّعٍ بِسَائِرِ
اللَّذَاتِ مِنْ مَا كُلٍّ وَمُشَارَبِ فَوْزٍ أَتَمٍّ فَوْزٌ ، وَلَا سِيَّامَا الْفَوْزُ بِذَلِكَ النِّعَمِ الرُّوحِيِّ وَهُوَ
رِضَا اللَّهِ عَنْهُ كَمَا قَالَ : « وَرَضَوْنَا مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ » .

ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَى اغْتِبَاطِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ ، وَبَيْنَ أَنْ ذَلِكَ كَانَ عَاقِبَةً كَسِبَهُ وَعَمَلُهُ فَقَالَ :

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) أَيْ لِمِثْلِ هَذَا النِّعَمِ وَالْفَوْزِ فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ
فِي الدُّنْيَا لِيَصِيرُوا إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَا يَعْمَلُوا لِلْحِظْوِظِ الدُّنْيَوِيَّةِ السَّرِيعَةِ الْإِنْصِرَامِ ،
الْمَشْوُوبَةِ بِصُنُوفِ الْأَلَامِ .

أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ
(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ
الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كَيْلُونَ مِنْهَا فَاَلْتُؤَنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ
لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨)
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

النزل : ما يعدّ للضيف وغيره من الطعام والشراب . والزقوم : شجرة صغيرة الورق كريهة الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة في الآية ، فتنة : أى محنة وعذاباً فى الآخرة ، وابتلاء فى الدنيا ، أصل الجحيم : أى قعر جهنم ، طلعا : أى ثمرها ، رموس الشياطين : أى فى قبج المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبيح الصورة بالشیطن فى قولون : وجه كأنه وجه شیطان ، كما يشبهون حسن الصورة بالملك ، والملاء : حشو الوعاء بما لا یحتمل الزيادة علیه ، والشوب : الخلط ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، مرجعهم : أى مصيرهم ، ألفوا : أى وجدوا ، يهرعون : أى يسرعون إسراعاً شديداً .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه ثواب أهل الجنة وذكر ما يتمتعون به من ما كل ووصف الجنة ورغب فيها بقوله : (مثل هذا فليعمل العاملون) . أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار وما يلاقون فيها من العذاب اللازم الذى لا يجدون منه محيصاً ، وهو عذاب فى ما كلهم ومشاربهم وأما كنهم ، جزاء ما دسّوا به أنفسهم من سىء الأعمال ، وما قلدوا فيه آبائهم بلا حجة ولا برهان من الكفر بالله وعبادة الأصنام والأوثان .

الإيضاح

(أذلك خير نزلأ أم شجرة الزقوم ؟) أى أهذا الرزق المعلوم الذى أعطيته لأهل الجنة كرامة منى لهم خير ، أم ما أوعدت به أهل النار من الزقوم المرّ البشع . وهذا ضرب من التهمك والسخرية بهم ، وهو أسلوب كثير الورود فى القرآن الكريم .

(إنا جعلناها فتنة للظالمين) أى إنا جعلنا لك الشجرة ابتلاء واختباراً للكافرين ، فهم حين سمعوا أنها فى النار قالوا : كيف يكون ذلك والنار تحرق الشجر ؟ مع أن هذا ليس بالمعجيب ولا بالمستحيل ، فإن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار وينعم فيها ، فهو أقدر على خلق الشجر فيها وحفظه من الاحتراق .
ثم وصف هذه الشجرة فقال :

(إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) أى إنها شجرة تنبت فى قعر النار وأغصانها ترتفع إلى أركانها .

(طلعتها كأنه رموس الشياطين) أى إن ثمرها فى قبح منظره وكراهة رؤيته كأنه رموس الشياطين ؛ والعرب تتخيل رأس الشيطان صورة بشعة لاتعدها صورة أخرى ، فيقولون لمن يسمونه بالقبح المتناهى : كأن وجهه وجه شيطان ، وكأن رأسه رأس شيطان ، ألا ترى إلى امرئ القيس وقد سلك هذه السبيل ونهج هذا النهج فقال :

أَيْقَتْنِي وَالْمَشْرِفَى مُضَاجِمَى وَمَسْنُونَةَ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

وعلى العكس من هذا تراه يشبهون الصورة الحسنه بالملك ، من قبل أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لا شرف فيه ، فارتسم فى خيالهم بأبهى صورة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن صواحيبات يوسف « مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

ثم بين أن ما كل أهل النار من هذه الشجرة فقال :

(فإنهم لا كلون منها فثالثون منها البطون) أى فإنهم لياً كلون من ثمرها فيملثون بطونهم منه ، وإن كانوا يعرفون مرارة طعمه ونهاية تننه وبشاعة رائحته ، ولكن ماذا يعملون وقد غلب الجوع عليهم ؟ والمضطر يركب الصعب والذلول ، ويستروح من الضر بما يقاربه فيه .

وبعد أن وصف طعامهم وبين شناعته ، أردفه بذكر شرابهم ووصفه بما هو أشنع وأشنع فقال :

(ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) أى نحم إنهم بعد أن يشبعوا ويغلبهم العطش يستغيثون منه فيفانون بماء كالمهل قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم شوى لحوم وجوهمهم ، وإذا شربوه قطع أمعاءهم .

ثم ذكر أنهم بعد هذا وذاك لا مأوى لهم إلا نار جهنم وبئس المصير فقال :

(ثم إن مرجعهم إلى الجحيم) أى ثم إن مصيرهم بعد الماء كل والمشراب . لا إلى نار تتأجج وجحيم تنوقد ، وسعير تتوهج ، فهم تارة في هذه وتارة في تلك كما قال :

« هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَيْمِ آنٍ » .

والخلاصة - إنهم يؤخذون من منازلهم في الجحيم وهى الدركات التى أسكنوها إلى شجرة الزقوم ، فىأكلون إلى أن تمتلئ بطونهم ثم يسقون الحميم ثم يرجعون إلى تلك الدركات .

ثم علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد ، بتقليد الآباء فى الدين بلا دليل يستمسكون به فقال :

(إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون) أى ثم إنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم بلا برهان ، وأسرعوا إلى تقليدهم بلا تدبر ولا روية ، وكأنهم استحيثوا على ذلك ، وأزعجوا إزعاجا .

وفى هذا دليل على أن التقليد شؤم على المقلد وعلى من تبعه . فالإنسان لا سعادة له إلا بالنظر والبحث فى الحقائق الدنيوية والأخروية ، ولو لم يكن فى القرآن آية غير هذه فى ذم التقليد لكانت .

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّابِينَ (٧١) وَأَقْدَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المشركين يهرعون على آثار آبائهم الأولين دون نظر ولا تدبر — أردفه بما يوجب التسليّة لرسوله على كفرهم وتكذيبهم ، بأن كثيراً من الأمم قبلهم قد أرسل إليهم الرسل فكذبوا بهم وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، ونجّى الله المؤمنين ونصرهم ، فليكن لك فيهم أسوة ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إن عليك إلا البلاغ .

الإيضاح

(ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) أى ولقد ضل قبل قريش كثير من الأمم السابقة ، فعبدوا مع الله آلهة أخرى كما فعل قوم إبراهيم وقوم هود وقوم صالح .

نم ذكر رحمة بعباده وأنه لا يؤاخذهم إلا بعد إنذار فقال :

(ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى فأرسلنا فيهم أنبياء ، ينذرونهم بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ، لكنهم تمادوا في مخالفة رسلهم وتكذيبهم ولم يستجيبوا دعوتهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى فانظر كيف كان عاقبة الكافرين المكذبين ، فقد دمرهم الله ونجّى المؤمنين ونصرهم .

وهذا خطاب موجه إلى كل من شاهد آثارهم ، وسمع أخبارهم ، فقد سمعت قريش بأنبياء قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وكيف كان عاقبة أمرهم .

وقد استثنى من هؤلاء المهلكين عباد الله المخلصين فقال :

(إلا عباد الله المخلصين) أى لكن عباد الله الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان والعمل بأوامر دينه ، أنجاهم من عذابه ففازوا بالنعيم المقيم في جنات عرضها السموات والأرض .

قصص نوح عليه السلام

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السافرة -- شرع يفصل ذلك ، فذكر نوحا عليه السلام وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول مدة لبثه فيهم ، فلما اشتدوا واشتطوا في العناد دعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه ، وأغرق قومه المكذبين ، ونجاه وأهله أجمعين .

الإيضاح

(ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) أى ولقد نادانا نوح واستنصر بنا على كفار قومه لما بالغوا في إيذائه وهما يقتله حين دعاهم إلى الدين الحق ، فلنعم المجيبون نحن ، إذ أبيتنا نداءه وأهلكنا من كذب به من قومه .

أخرج ابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان النبی صلى الله عليه وسلم إذا صلى في بيتي فمر بهذه الآية : (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) قال صدقت ربنا ، أنت أقرب من دُعى وأقرب من بُقى ، فنعم المدعو ، ونعم المعطى ، ونعم المستول ، ونعم المولى أنت ربنا ، ونعم النصير » .

ثم بين سبحانه أن الإنعام حصل فى الإجابة من وجوه :

(١) (ونَجِينَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) الكرب : الغم الشديد أى فنجيناه من الفرق ومن أذى قومه ومن كل ما يكره ويسوء .

(٢) (وجعلنا ذريته هم الباقين) أى وأهلكنا من كفر بنا استجابة لدعوته : « رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » ولم يُعْقِبْ أحد من كان فى السفينة عَقِبًا باقيا سوى أبنائه الثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو العرب وفارس والروم ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث أبو الترك . وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين ، وليس فى القرآن ولا فى السنة نص قاطع على شىء من هذا ، كما أنه نيس فى القرآن ما يشير إلى عموم دعوته لأهل الأرض قاطبة ، ولا أن الفرق عمّ الأرض جميعا ، وأن ما تفيدته الآية من جعل ذريته هم الباقين إنما هو بالنسبة لذرية من معه فى السفينة ، وذلك لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه وقد كان فى بعض الأقطار الشاسعة من لم تبلغهم الدعوة ، فلم يستوجبوا الفرق كأهل الصين وغيرهم من البلاد النائية .

(٣) (وتركنا عليه فى الآخرين) أى وأبقينا له ثناء حسنا وذكرا جليلا فيمن بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة .

ثم ذكر سبحانه أنه سلم عليه لِيُقْتَدَى بِهِ ، فلا يذكره أحد بسوء فقال : (سلام على نوح فى العالمين) أى وقلنا له : عليك السلام فى الملائكة والإنس والجن .

ومحو الآية قوله : « قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ » .

ثم علل ما فعله به بأنه جزاء على إحسانه فقال : (إنا كذلك نجزي الحسنين) أى إنه كان فى زمرة الحسنين فجازيناه بالإحسان إليه « وَهَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » .

وإحسانه أنه جاهد أعداء الله بالدعوة إلى دينه ، وصبر طويلاً على أذاهم ، إلى نحو من هذا .

ثم بين سبب إحسانه بقوله :

(إنه من عبادنا المؤمنين) أى إن إحسانه كان بإخلاص عبوديته وكال إيمانه .
وفى هذا إيماء إلى أن أعظم الدرجات ، وأشرف المقامات الإيمان بالله والالتقياد لطاعته .

(ثم أغرقنا الآخرين) أى ثم أغرقنا الآخرين من كفار قومه ، ولم نبق لهم عينا ولا آثرا .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَتُنْفِكَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُُونَ (٩٤) .

شرح المفردات

من شيعته : أى ممن سار على دينه ومنهاجه ، سليم : أى سالم من جميع العلل والآفات النفسية كالحسد والغل وغيرها من النيات السيئة ، والإفك : الكذب ،

سقيم : أى مريض ، فراغ : أى فذهب خفية إلى أصنامهم ؛ وأصل الروغ والروغان : الميل قال شاعرهم :

ويُرِيكَ من طرف اللسان حلاوةً وَيُرُوغُ عنك كما يَرُوغُ الثعلبُ
بالمِين : أى بقوة وشدة ، يزفون : أى يسرعون ؛ من زف النعام ، أى أسرع .

الإيضاح

(وإن من شيعته لإبراهيم) أى وإن من سار على نهج نوح وسلك طريقه فى اعتقاد التوحيد والبعث والنصب فى دين الله ومصاهرة المكذبين — إبراهيم صوات الله عليه .

(إذ جاء ربه بقلب سليم) أى إذ أخلص قلبه لربه وجعله خاليا من كل شئون الحياة الدنيا ، فلا غش لديه ولا حقد ولا شيء مما يشينه من العقائد الزائفة ، والصفات القبيحة .

ثم فصل ما سلف فقال :

(إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟) أى جاء بقلب سليم حين قال منكرا على أبيه وقومه عبادة الأصنام والأوثان : أى شيء تعبدون ؟ وهذا منه استنكار وتوبيخ لهم على ما يعبدون ، إذ لا ينبغي لعاقل أن يركن إلى مثل هذه المعبودات التى لا تنفع ولا تضر .

ثم بين الإنكار وفسره بقوله :

(أنفك آلهة دون الله تريدون ؟) أى أتريدون آلهة من دون الله تعبدونها إنفكا وكذبا دون أن تكونوا فى ذلك إلى دليل من نص ولا تأييد من نقل ، إن هذا منكم إلا خبال وخطأ فى الرأى .

(فما ظنكم برب العالمين) أى أى شيء ظنكم برب العالمين الحقيق بالعبادة ؟ أى أعلم أى شيء هو ، حتى جعلتم الأصنام شركاء له ؟

(فنظر نظرة في النجوم) أخرج ابن أبي حاتم عن فداة أن العرب تقول للشخص إذا تفكر وأطال الفكرة : نظر في النجوم أى فأطال الفكر فيها هو فيه .

(فقال إني سقيم) أى إني أحس بخروج مزاجي عن حال الاعتدال ، ولا أرى في نفسي خفة ونشاطا ، وكان مقصده من قوله هذه ألا يخرج معهم في يوم عيدهم لينفذ ما عزم عليه من كسر أصنامهم وإعلان الحرب عليهم في عبادتهم للأوثان والأصنام ، ولم يكن لهم علم بما بينت عليه النية . ولا دليل على أنه لم يكن صادقا فيما يقول ؛ إذ من عزم على تنفيذ أمر ذي مال يخاف منه الخطر على نفسه أن يكون مبهوما مغموما مفكرا في عاقبة ما يعمل .

(فتولوا عنه مدبرين) أى فأعرضوا عنه وذهبوا إلى معبدهم وتركوه في مكانه .
(فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ؟) أى فذهب مستخفيا إلى أصنامهم التي يعبدونها وقال لها استمزاء : ألا تأكلون من الطعام الذي يقدم إليكم ؟ وكانوا يضعون في أيام أعيادهم طعاما لدى هذه الأصنام لتبارك فيه .

(ما لكم لا تنطقون ؟) أى أى شيء منعكم الإجابة عن سؤالي ، ومراده بذلك التهم بهم واحتقار شأنهم .

(فراغ عليهم ضربا باليمين) أى فاتجه إليهم بضربهم بقوة وشدة حتى تركهم جذاذا إلا كبيرهم كما تقدم في سورة الأنبياء .

(فأقبلوا إليه يزفون) أى فأقبل قومه إليه بعد رجوعهم من عيدهم مسرعين يسألون عن كسرها ، وقد قيل لهم : إنه إبراهيم ، فقالوا له : نحن نعبدها وأنت تنكسرها ؟ ولما أخذوا يعتبون عليه طفق يؤنبهم ويعيبهم :

قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)
قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ

الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ (٩٩) رَبُّ هَبْ لِي
مِنَ السَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) .

الإيضاح

(قال أتعبدون ما تعبدون ؟) أى أتعبدون من دون الله أصناما أتم تفجوتونها
بأيديكم ؟ فما تُحدثون فيه الصنعة بأيديكم تجعلونه معبودا لكم ، أفلا عاقل منكم ينهاكم
عن مثل هذا ؟

(والله خلقكم وما تعملون) أى والله خلقكم وخلق تلك الأصنام التي تعملونها
بأيديكم ، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق ، لا جرم أن عبادتكم لها خطأ
عظيم ، وإثم كبير .

ولما أورد عليهم إبراهيم هذه الحجة القوية التي لم يستطيعوا دفعها — عدلوا عن
الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة .

(قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) تقدم هذا بإيضاح أكثر فى سورة الأنبياء
(فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) أى فأرادوا إحراقه فى النار فأنجيناهم منها
وجعلناهم برءا وسلاما عليه وجعلنا كيدهم فى نحورهم أذلاء مستضعفين وكتبنا له
الغلبة والنصر عليهم .

و بعد أن يؤس من إيمانهم أراد مفارقتها والهجرة من بينهم .

كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) أى وقال إني مفارق لتلك الديار ومهاجر
إلى مكان أنقرغ فيه لعبادة ربي ، وإنه سيهدينى إلى ما فيه صلاح دينى ، وهذا
المكان هو الأرض المقدسة .

وفى الآلة إيمان إلى أن الإنسان إذا لم يتمكن من إقامة دينه على الوجه المرضى
فى أرض وجبت عليه الهجرة منها إلى أرض أخرى .

ولما هاجر من وطنه طلب الولد فقال :

(رب هب لي من الصالحين) أى رب هب لي أولادا مطيعين يعينوننى على الدعوة ، ويؤنسوننى فى الغربة ، ويكونون عوضاً من قومي وعشيرتي الذين فارقتهم . فاستجاب ربه دعاءه فقال :

(فبشرناه بغلام حليم) أى فبشرناه بمولود ذكر يبلغ الحلم ويكون حليماً ، وقد استفيد بلوغه من وصفه بالحلم ، لأنه لازم لتلك السن ، إذ قلما يوجد فى الصبيان سعة الصدر وحسن الصبر والإغضاء عن كل أمر ، وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق بانفاق العلماء من أهل الكتاب والمسلمين ، بل جاء النص فى التوراة على أن إسماعيل ولد لإبراهيم وسنه ست وثمانون سنة ، وولد له إسحاق وعمره تسع وتسعون سنة .

وأى حلم مثل حلمه ، عرض عليه أبوه وهو مراهق أن يذبحه فقال : « سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فما ظنك به بعد بلوغه ، وما نعت الله نبيا بالحلم غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام .

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَبَ
يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥)
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا

مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ
وظالمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) .

شرح المفردات

فلما بلغ معه السعى أى فلما بلغ السن التى تساعده على أن يسعى معه فى أعماله
وحاجات المعيشة ، أسلما : أى استسلما وانقادا لأمر الله ، تله : أى كبه على وجهه ،
صدقت الرؤيا : أى حققت ما طلب منك ، البلاء المبين . أى الاختبار البين الذى
يتميز فيه المخلص من غيره ، بذبح : أى حيوان يذبح ، باركنا عليه : أى أفضنا
عليه البركات .

المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن قال سبحانه : فبشرناه بغلام حليم — أتبعه بما يدل على حصول
مابشر به وبلوغه سن المراهقة بقوله : فلما بلغ معه السعى ، إذ هو لا يقدر على الكد
والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن ، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه وإطاعته فى تنفيذ ما أمر به
وصبره عليه ، ولما حان موعد التنفيذ كبه على وجهه للذبح فأوحى إليه ربه أنه فداء
بذبح عظيم . ثم بشره بإسحاق نبيا من الصالحين ، وبارك عليه وعلى إسحاق وأنه
سيكون من ذريتهما من هو محسن فاعل للخيرات ، ومنهم من هو ظالم لنفسه
مجترح للسيئات .

الإيضاح

(فلما بلغ معه السعى قال يابنى : إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟)
أى فلما كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويسعى فى أشغاله وقضاء حوائجه —
قال له يابنى : إني رأيت فى المنام أنى أذبحك ، فما رأيك ؟ وقد قص عليه ذلك ليعلم

ما عنده فيما نزل من بلاء الله ، فيثبت قدمه إن جزع وليوطن نفسه على الذبح ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله .

ثم بين أنه كان سميعا مطيعا منقادا لما طلب منه .

(قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى قال يا أبت سميعاً دعوت ، ومن مجيب طلبت وإلى راض ببلاء الله وقضائه وتوجيهت ، فما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به ، وما على إلا الانقياد وامتثال الأمر ، وعلى الله المثوبة ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

ولما خاطبه بقوله يا بنى على سبيل الترحم ، أجابه بقوله يا أبت على سبيل التوقير والتعظيم ، وفوض الأمر إليه حيث استشاره ، وأن الواجب عليه إمضاء ما رآه .

ثم أكد امتثاله للأمر بقوله :

(ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) أى سأصبر على القضاء ، وأحتمل هذه اللأواء ، غير ضجر ولا برم بما قضى وقدر ، وقد صدق فيما وعد ، وبر في الطاعة لتنفيذ ما طلب منه ، ومن ثم قال سبحانه في شأنه ما دحاله « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » .

ثم ذكر طريق تنفيذ الرؤيا فقال :

(فلما أسلما لله للجبين) أى فلما استسلما وانقادا لأمر الله وفوضا إليه سبحانه الأمر في قضائه وقدره ، وأكب إبراهيم ابنه على وجهه بإشارة منه حتى لا يرى وجهه فيشفق عليه . وروى عن مجاهد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى ، عسى أن ترحنى فلا تجهز على ، اربط يدي إلى رقبتي ، ثم ضع وجهى للأرض ، ففعل .

(وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا) أى ناداه من خلفه ملك من قبله تعالى : أن قد حصل المقصود من رؤيك بإضجاعك ولدك للذبح ، فقد بان امثالك للأمر ، وصبرك على القضاء ، وحينئذ استبشرا وشكرا الله على ما أنعم به عليهما من

دفع البلاء بعد حنوله ، والتوفيق لما لم يوفق غيرهما مثله ، مع إظهار فضلها ، وإحراز المثوبة من ربهما .

ثم علل رفعه لذلك البلاء وإزالته لتلك الغمة بقوله :

(إنا كذلك نجزي المحسنين) أى إنا كما عفونا عن ذنبه لولده ، بعد استبانة خلاصه في عمله ، حين أعد العدة ولم تغلب عليه عاطفة البنوة ، فرضى بتنفيذ القضاء منقادا صاغرا — كذلك نجزي كل محسن على طاعته ، ونوفيه من الجزاء ما هو له أهل ، وبمثله جدير .

ثم ذكر عظيم صبره على امتثال أمر ربه مع ما فيه من كبير المشقة في مجرى العادة فقال :

(إن هذا هو البلاء المبين) أى إن هذا الذى كان لهو محنة أيما محنة ، واختبار لعباده لا يعدله اختبار ، والله عز اسمه أن يبتلى من شاء من عباده بما شاء من التكليف وهو الفعال لما يريد ، لا راد لقضائه ولا مانع لقدره ، وكثير من التكليف قد تخفى علينا أسرارها وحكمها ، وهو العليم بها وبما لأجله شرعها .

(وفديناه بذبح عظيم) أى وفديناه يوعل أهبط عليه من جبل ثبير قاله الحسن البصرى ، ولا علينا أن نزيد على ما جاء به الكتاب ، ومكان نزوله لا يهم في بيان هذه المنة التى امتن بها عليه .

ثم ذكر أنه منّ عليه بمنة أخرى فقال :

(وتركنا عليه فى الآخرين) أى وأبقينا له ذكرا حسنا بين الناس فى الدنيا فصار محببا بين الناس جميعا من كل ملة ومذهب ، فاليهود يحبونه ، والنصارى يعظمونه ، والمسلمون يبجلونه ، والمشركون يحترمونه ، ويقولون إنا على ملة إبراهيم أئينا ، وذلك استجابة لدعوته حين قال : « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ مَّوَرَّةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ » .

ثم ذكر أنه منّ عليه بمنة ثالثة فقال :

(سلام على إبراهيم) أى وقلنا له : عليك السلام فى الملائكة والإنس والجن .

ثم أعقب ذلك بنعمة رابعة وهى نعمة الولد فقال :

(وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) أى وآتيناه إسحاق ومنثما عليه بنعمة النبوة له والكثير من حفدته كفاء امتثاله أمرنا وصبره على بلوإا .

(وباركنا عليه وعلى إسحاق) أى وأنفضنا عليهما بركات الدنيا والآخرة ، فكثرتا نسلهما وجعلنا منه أنبياء ورسلًا ، وطلبنا من المسلمين فى صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة فيقولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم فى العالمين .

(ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) أى ومن ذريتهما من أحسن فى عمله فأمن بربه وامتنل أوامره واجتنب نواهيه ، ومن ظلم نفسه ودساها بالكفر والفسوق والمعاصي .

وفى ذلك تنبيه إلى أن النسب لا أثر له فى الهدى والضلال . وأن الظلم فى الأعقاب لا يعود إلى الأصول بنقيصة . ولا عيب عليهم فى شىء منه كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

من الذبيح؟ إسحاق أم إسماعيل؟

ليس فى هذه المسألة دليل قاطع من سنة صحيحة ولا خبر متواتر ، بل روايات منقولة عن بعض أهل الكتاب وعن جماعة من الصحابة والتابعين ، ومن ثم حدث الخلاف فيها .

١ — فمن قائل إنه إسحاق ، ويؤيد :

(١) ما روى عن يوسف عليه السلام أنه قال لفرعون مصر فى وجهه : أترغب

عَنْ أَن تَأْكُلَ مَعِيَ وَأَنَا وَاللَّهُ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ نَبِيَّ اللَّهِ ابْنَ إِسْحَاقَ ذَيْبِجَ اللَّهِ
ابْنَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ .

(ب) ما روى عن أَبِي الْأَحْوَصِ قَالَ : افْتَخِرَ رَجُلٌ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ
أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْأَشْيَاحِ الْكِرَامِ ، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : ذَلِكَ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ
ابْنَ إِسْحَاقَ ذَيْبِجَ اللَّهِ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ .

(ح) ما حكاه البغوي عن عمر وعليّ وابن مسعود والعباس أنه إسحاق .
ولسكب الأخبار ضلّع في هذه الأخبار وأمثالها التي تلقاها المسمعون عنه ، وكان
يحدث بها عن الكتب القديمة وهي جامعة بين الغث والسمين ثقة بأن عمر رضى الله
عنه قد استمع منه ، ومن ثم احتاج الثقات إلى تمحيصها وعزل جيدها من بهرجها
وصحيجها من سقيمها .

٢ - ومن فائل إنه إسماعيل وهو الذي يساوقه صحيح النظر ونصوص
القرآن ويؤيده .

١ - رواية ذلك عن ابن عباس فقد روى عطاء بن أبي رباح عنه أنه قال :
المُفَدَّى هو إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود .

(ب) روى مجاهد عن ابن عمر أنه قال : الذبيح إسماعيل .

(ح) أن ابن إسحاق قال : سمعت محمد بن كعب القرظي يقول : إن الذي أمر
الله بذبحه من ابنه هو إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى فإنه بعد أن
فرغ من قصة المذبح من ابني إبراهيم قال : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ »
وقال : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » فلم يكن يأمره بذبح
إسحاق وله فيه من الموعد ما وعده ، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل — قال
ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا .

وعلى الجملة فظاهر نظم الآية والروايات التي يروونها يؤيد أنه إسماعيل ، ولكن
اليهود حسدوا العرب على أن يكون أباهم هو الذي كان من أسر الله فيه ما كان

ومن الفضل الذى ذكره الله له لصبره لما أمر به ، فجدوا ذلك وزعموا أنه إسحاق لأنه أبوه ، والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهرا مطيعا لربه .

قصص موسى وهارون عليهما السلام

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْتَنُفُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) .

الإيضاح

(ولقد مننا على موسى وهارون) أى ولقد أنعمنا عليهما بالخير الكثير ، فآتيناهما النبوة ونصرناهما على أعدائهما من قبط مصر وملكناهما أرضهم وأغرقنا من كان مستندهما إلى نحو ذلك .

ثم فصل هذه النعم فقال :

(١) (ونجيناها وقومهما من الكرب العظيم) أى ونجيناها ومن آمن معهما من الكرب العظيم الذى كانوا فيه بإساءة فرعون وقومه إليهم من قتل الأبناء ، واستحياء النساء ، واستعمالهم فى أخس المهن والصناعات ، ومعاملتهم معاملة العبيد والأرقاء إلى ضروب أخرى من المهانة والمذلة التى لولا إلفهم بها لكانت كافية فى انقراضهم ، ولكنهم شعب لا يأبى الخضوع ولا الاستكانة متى وجد فى ذلك السبيل لجمع المال وحيازته والتمتع بلذات الحياة الدنيا .

(٢) (ونصرناهم فكانوا هم الغالبين) أى ونصرناهم على أعدائهم فغلبهم
ومسكوا أرضهم وأموالهم وما كانوا قد جمعه طوال حياتهم فكانوا أصحاب الصَّوْلَة
والسلطان والدولة والرفعة .

(٣) (وآتيناهما الكتاب المستبين) أى وأعطيناهما الكتاب الجلى الواضح
الجامع لما يحتاج إليه البشر فى مصالح الدين والدنيا ، وهو التوراة كما قال : « إِنَّا أَنْزَلْنَا
التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » وقال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهْرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ
وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ » .

(٤) (وهديناهما الصراط المستقيم) أى ودللناهما على طريق الحق بالمقل والنقل
وأمددناهما بالتوفيق والعصمة .

(٥) (وتركنا عليهما فى الآخرين) أى وأبقيناهما الذكر الحسن والثناء الجميل
فيمر بعدهم ، وهذا ما تصبو إليه النفوس قال شاعرهم :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال : الذكركر للإنسان عمر ثان .

(٦) (سلام على موسى وهرون) أى وجعلنا الملائكة والإنس والجن يسلمون
عليهما أبد الدهر ، ولا شئ أدعى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال كما ورد
فى الحديث « من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه فكأما حيزت له الدنيا
بجذافيرها » .

نم ذكر سبب هذه النعم فقال :

(إنا كذلك نجزي المحسنين . إيهما من عبادنا المؤمنين) الكلام فى هذا نظير

ما سلف من قبل .

قصص إيلياس عليه السلام

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤)
 أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ
 الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَانْتَبَهُمْ لَمْخَضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٣٠)
 إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) .

الإيضاح

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) قال ابن جرير هو إيلياس بن ياسين بن فتاح
 ابن العيزار بن هرون أخى موسى عليهما السلام ، فهو إسرائيلي من سبط هرون .
 (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ؟) أى أنذروهم وحذروهم بأس الله فقال : ألا تخافون
 الله فتمثلوا بأوامره وتتركوا نواهيه ؟

ثم ذكر سبب الخوف فقال :

(أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ .) الله ربكم ورب آبائكم الأولين (
 بعل : اسم صنم ؛ أى أتعبدون هذا الصنم وتتركون عبادة من خلقكم وخلق آباءكم
 السابقين وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه .

ثم بين أن قومه كذبوه واستمروا فى غوايتهم فقال :

(فَكَذَّبُوهُ فَانْتَبَهُمْ لَمْخَضَرُونَ) أى فكذبوه فيما تضمنه كلامه من وجوب توحيد
 الخالق وتحريم الإشراك به وعقابه تعالى عليه ، فهم لأجل ذلك يحضرون يوم القيامة
 للعذاب ويحازون على سوء أفعالهم وأقوالهم .

ثم أخرج من بينهم جماعة لم يكذبوا فلم يبحقهم هذا العذاب والهوان فقال :
 (إيا عباد الله الخالصين) أى إلاقوما منهم أخلصوا العمل لله وأنابوا إليه
 فاولئك يجزون الجزاء الأوفى على ما أسلفوا من عمل صالح ، وقدموا من ذكر طيب .
 (وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على الياسين . إنا كذلك نجزي المحسنين .
 إنه من عبادنا المؤمنين) الكلام فيه كما تقدم فيما قبله سوى أن الياسين لغة فى إلياس
 وكثيرا ما يتصرفون فى الأسماء غير العربية .

قصص لوط عليه السلام

وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا
 عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ
 عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلًا تَعْقُلُونَ (١٣٨) .

البيان

(وإن لوطا لمن المرسلين) أى وإنا أرسلنا لوطا إلى قومه أهل سدوم ، وكانوا
 قد أتوا من المفكرات والفواحش ما لم يأتهم أحد من العالمين فنصحهم فلم ينتصحو
 فأهلكهم الله ونجاه هو وقومه كما قال :
 (إذ نجينا وأهله أجمعين . إيا عجوزا فى الغابرين) أى فنجينا هو وأهله من بين
 أظهرهم إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها وجعلنا محلهم من الأرض
 بحيرة ذات ماء ردىء الطعم متفن الرياح .
 (ثم دمرنا الآخرين) أى ثم أهلكنا عدا من ذكرنا .
 ثم أرشد مشركى مكة إلى النظر والاعتبار بما حل بهم وبأمثالهم من
 المكذبين فقال :

(وإنكم لترون عليهم مصبحين وبالليل) أى وإنكم لترون عليهم وأنتم مسافرون إلى الشام حين الصباح ، أو أول الليل فترون آثار ديارهم التى عفت وأضحت خرابا يبابا ، لا أنيس فيها ، ولا جليس ، ولا ديار ولا نافخ نار .
(أفلا تعقلون ؟) أى أنشاهدون هذا فلا تعتبروا ولا تحافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ؟ فإن ما حل بهم من البلاء إنما كان لمخالفة رسولهم كما تفعلون .

قصص يونس عليه السلام

وَإِنْ يُؤْثِرَ لِمَنْ الرُّسُلَيْنِ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠)
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢)
فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)
فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦)
وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى
حِينٍ (١٤٨) .

شرح المفردات

أصل الإيقاع : هرب العبد من سيده ؛ والمراد هنا أنه هاجر بغير إذن ربه ،
المشحون : المملوء ، فساهم : أى فقارع من فى الفلك ؛ أى عمل قرعة ، المدحضين :
أى المغلوبين بالقرعة ، فالنقمه : أى فابتلعه ، ملیم : أى آت ما يستحق عليه اللوم ،
بالعراء : أى بالمسكان الخالى ، يقطين : أى دُبَّاء (القرع العسلى المعروف الآن)
وميل : الموز ؛ وهو أظهر لأن أوراقه أعرض .

الإيضاح

: وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين) أى وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نينوى بالموصل ، حين هرب إلى الفلك المملوء بغير إذن ربه ، فقارع أهل الفلك فكان من المغلوبين في القرعة وقد روي في إياقه الرواية الآتية :

إنه لما أوعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالمهجرة ، فركب سفينة فوقفت فقالوا ها هنا عبد آبق من سيده ، وكان الملاحون يزعمون أن السفينة إذا كان فيها آبق لا تجرى ، فافترعوا فخرجت القرعة عليه ، فقال أنا الآبق وألقى نفسه في الماء .

(فالتقمه الحوت وهو مليم) أى فالتقمه الحوت وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه ، وقد كان عليه أن يصبر على آذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل .

ثم ذكر أنه أبحاه لما كان له من عمل صالح فقال :

(فلولا أنه كان من المسبحين . لبث في بطنه إلى يوم يبعثون) أى فلولا أنه كان من الذاكرين الله كثيرا والمسيحين بحمده طوال عمره ، لبث ميتا في بطنه إلى يوم البعث إذ كان يهضم كبقية أنواع الطعام ويتحول إلى غذاء له كسائر أنواع الأغذية التي يأكلها .

(فتبذاه بالعراء وهو سقيم) أى فجعلنا الحوت يلقيه في مكان خال لانبث فيه ولاشجر ، وهو عليل الجسم سقيم النفس ، لما لحقه من الغم مما حدث من قومه معه ، إذ أعرضوا عن دعوته ولم يصدقوه فيما جاء به ، وقد كان يرجو لهم الخير والنعمة في دنياهم وآخرتهم ولما وجد من شدة وجهه في ابتلاع الحوت له .

ثم بين لطفه به ورعايته له حتى لا يتعرض لحر الشمس ولا لزمهرير البرد فقال :

(وأنبئنا عليه شجرة من يقطين) أى فأنبئنا حوالياه شجرة موز يتمطى بورقها ، ويستظل بأغصانها ، فتقيه لفتح الشمس ووجهها وبرد الصحراء وشديد صرّها ، وكذلك يأكل من ثمارها ، فتغنيه عن طلب الغذاء من أى جهة أخرى .
ثم ذكر أنه لما شفى من سقمه ونجا من الهلاك ورضى ربه عنه عاد إلى قومه ليتم دعوته ويبلغ رسالته كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعنهم إلى حين) أى فأرسلناه مرة أخرى إلى هؤلاء القوم وقد كانوا مائة ألف بل يزيدون ، فاستقامت حالهم وآمنوا به لأنه بعد أن خرج من بين أظهرهم رأوا أنهم قد أخطئوا وأنهم إذا لم يتبعوا رسولهم هلكوا كما حدث لمن قبلهم من الأمم ، فلما عاد إليهم ودعاهم إلى ربه لبوا الدعوة طائعين منقادين لأمر الله ونهيه ، فمتعنهم في هذه الحياة حتى انقضت آجالهم وهلكوا فيموت هلك .

تذنيب

ها هنا مسألان :

- (١) إن القرآن الكريم لم يبين لنا ممّ أبق ؟ ولو كان في بيانه فائدة لذكرها .
- (٢) إنه لم يذكر مدة لبثه في بطن الحوت ، وتعيين زمن معين يحتاج إلى نقل صحيح ولم يؤثر ذلك ، وأيا كان فبقاؤه حيا في بطن الحوت مدة قليلة أو كثيرة معجزة لذلك النبي الكريم .

فَاسْتَفْتِهِمُ الرَّبُّ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦)
فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا يَدَيْهِ وَيَمِينِ الْجَنَّةِ
نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩)
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) .

المعنى الجملى

أمر الله رسوله فى صدر هذه السورة بذكيت قريش وتوبيخهم على إنكارهم
للبعث مع قيام الأدلة وتظاهرها على وجوده ، ثم ساق الكثير منها مما لا يمكن رده
ولا جحده ، ثم أعقبه بذكر ما سيقونه من العذاب حينئذ ، واستثنى منهم عباد الله
المخلصين وبين ما يقونه من النعيم . ثم عطف على هذا أنه قد ضل قبلهم أكثر
الأولين وأنه أرسل إليهم منذرين ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء تفصيلا متضمنا
وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل .

وهذا أمره بالتنديد عليهم ثانيا بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائرة التى
عملوها وهى جعل البنات لله وجعل البنين لأنفسهم بقولهم : الملائكة بنات الله ،
ثم بالتفريع ثالثا على استهاتهم بالملائكة يجعلهم إناثا ، ثم أبطل كلا من هذين
بالحجة التى لا يجد العاقل محيصا من التصديق بها والإذعان لها .

الإيضاح

(فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ؟) أى سل قريشا مؤنبا لها ومقرعا على
ضعف أحلامها وسفاهة عقولها ، الربى البنات ولهم البنون ؟ فمن أين جاءكم هذا
التقسيم ، وإلام تستندون ؟ وإنكم لتكروهون البنات وتبغضونها أشد البغض
كما جاء فى قوله : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ » .

ونحو الآية قوله في سورة النجم : « أَلَسْكُمْ الَّذِ كُرُّ وَلَهُ الْآئِنَى ؟ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى قسمة جائرة .

(أم خلقنا الملائكة إنانا وهم شاهدون ؟) أى بل أخلقنا الملائكة إنانا وقد شهدتم هذا الخلق ؟

وهذا ترقى فى التوبيخ لهم على هذه المقالة . إذ أن ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة أو النقل . ولا سبيل إلى معرفته بالعقل ، حتى يقوم الدليل والبرهان على صحته ، والنقل الصحيح الذى يؤيد ما ندعون لا يوجد ، فلم تبق إلا المشاهدة ، وهذه لم تحصل ، ونحو الآية قوله : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا ، أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ؟ سَبَّكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » .

ثم بين فساد منشأ هذه العقيدة الزائفة فقال :

(ألا إنهم من إفكهم نيقولون . ولد الله) أى وما جرأهم على هذا القول الهراء والراى الخطل إلا اعتقادهم الباطل أن لله ولدا ، وهو افتراء قبيح وإفك صريح . لا مستند له ، ولا شبهة ترشد إلى صدقه .

ثم أكد هذا النفى بقوله :

(وإنهم لكاذبون) فيما يقولون ، ولا أثره لهم من علم يصدق ما يعتقدون ، فمن أين جاءهم هذا ؟

ثم نقض الدعوى من أساسها مبينا أن العقل لا يتقبلها فقال :

(أصطفى البنات على البنين ؟) أى أى شىء يحمله على أن يختار البنات ويترك البنين ؟ والعرف والعادة والمنطق السليم شاهد صدق على غير هذا .

ونحو الآية قوله : « أَفَأَضَعَا كُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَانًا ؟ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا » .

(مالكم كيف تحكمون ؟) أى أمّا لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ،
وتتفكرون فى صحة ما تعتقدون ؟ فالعقل يقضى بطلان مثل هذا .
(أفلا تذكرون ؟) فتعرفوا خطأ ما تعتقدون ، وترجعوا على أنفسكم بالدلائل
مما تقولون .

ثم زاد فى تأنيبهم وتقريعهم وطالبهم ببرهان من النقل يؤيد صحة ما يدعون فقال :
(أم لكم سلطان مبين ؟ فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) أى بل ألكم حجة
واضحة على هذا نزل بها وحى ؟ إن كان الأمر هكذا فأرونى كتابكم الذى يؤيد
ما تقولون إن كنتم صادقين .

ولا يخفى ما فى هذه الآيات من الدلالة على السخط العظيم ، والإنكار الشديد
لأقوالهم ، وتسفيه أحلامهم ، مع الاستهزاء بهم ، والتعجب من جهلهم .
ثم ذكر أن هذه العقيدة ستؤدى بهم إلى ما لا ينبغي أن يقال فقال :

(وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) المراد بالجنة الملائكة ، وسموا جنّا لاجتماعهم
واستقارهم عن العيون ، أى وجعلوا بينه وبين الملائكة مشاكلة ومناسبة ، فقالوا
الملائكة بنات الله .

ثم ذكر أنهم سيندمون على مقاتلتهم هذه فقال :
(ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون) أى ولقد علمت الملائكة الذين ادعى
المشركون أن بينه تعالى وبينهم نسبا — أن هؤلاء المشركين محضرون إلى النار
ومعذبون فيها لكذبهم وافترائهم فى قيلهم هذا .

قال مجاهد ومقاتل : القائل ذلك هم كفانة وخزاعة ، قالوا إن الله خطب إلى
سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات
الجن ، وقال الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهو النسب الذى جمّلوه .
وقال الكلبي وقتادة : قالت اليهود — لعنهم الله — : إن الله صاهر الجن فكانت
الملائكة من بينهم .

والخلاصة — إن هؤلاء سيمذبون في النار على تفوّقهم على الله بغير علم بإثبات البنات له دون أن يكون هناك نص على ذلك

ثم نزه سبحانه نفسه عن كل ما لا يليق به من هذه النقائص فقال :
(سبحانه الله عما يصفون) أى تقدس ربنا عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون علواً كبيراً .

(إلا عباد الله المخلصين) أى ولكن المخلصين لمتبعين للحق المنزّل على الرسل ناجون فلا يحضرون إلى النار ولا يعذبون .

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مَنَّا إِلَّا لَهُ مُقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) .

شرح المفردات

بفاتنين : أى بمضدين من قولهم قتل فلان على فلان امرأته إذا أفسدها عليه ،
صال الجحيم : أى داخل فى النار ومعذب فيها ، الصافون : أى صافوا أنفسهم
للعباداة ، ذكرا : أى كتابا .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت فساد آراء المشركين ومذاهبهم — أتبع ذلك بما نبه به إلى أن هؤلاء المشركين لا يقدرّون على حل أحد على الضلال إلا إذا كان مستعداً له ،

وقد سبق في حكم الله أنه من أهل النار وأنه لا محالة واقع فيها ، ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيها إلى فساد قول من ادعى أنهم أولاد الله .

الإيضاح

(فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صالى الجحيم) أى فإنكم أيها المشركون مع معبودكم من الأوثان والأصنام لا تبسهل لكم أن تفقتوا إلا من هو ضالّ مثلكم ، ومن كتب له أنه من أصحاب النار فهو لا محالة يككب فيها ، قال لبيد بن ربيعة فأحسن :

أحمد الله فلا نذ له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

ثم حكى سبحانه اعتراف الملائكة بالعبودية لربهم فقال :

(وما منا إلا له مقام معلوم) أى وإن لكل منا مرتبة لا يتجاوزها في العبادة والانتهاى إلى أمر الله تعالى خضوعا لعظمته . وخشوعا لهيبته ، وتواضعا لجلاله كما روى في الخبر « فمنهم راعى لا يقيم صلبه ، وساجد لا يرفع رأسه » .

(وإنا لنحن الصافون) أى وإنا لنقف صفوفًا في أداء الطاعات ، ومنازل الكرامات ، لكل منا منزلة لا يعدوها ، ومرتبة لا يتخطاها . وفي صحيح مسلم عن جابر ابن سُمرة قال : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في المسجد فقال : ألا تُصَفُّون كما تُصَفُّ الملائكة عند ربها ، قلنا : يا رسول الله كيف تُصَفُّ الملائكة عند ربها ؟ قال : يتنَّون الصفوف الأول ويتراضون في الصف » وكان عمر يقول إذا قام للصلاة : أقيموا صفوفكم واستووا ، إنما يريد الله بكم هدى الملائكة عند ربها ويقرأ : « وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ » تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكب . (وإنا لنحن المسحون) أى وإنا لنزّه الله تعالى عما لا يليق به . فنحن عبيد له ، فقراء إليه . خاضعون لأوامره .

ثم حكي عن المشركين مقاتلتهم قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
(وإن كانوا يقولون . لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكننا عباد الله الخالصين)
أى ولقد كانوا يتخنون قبل أن يأتيهم الرسول أن لو كان عندهم من يذكركم بأمر الله
ونبيه ويأتيهم بكتاب من عنده ، ليخلصوا له العبادة ويكونوا أهدي سبيلا من سبيلهم
من أهل الكتب السالفة من اليهود والنصارى .

ثم بين أنهم كانوا كاذبين وأن حالهم بعد مجيئه كانت على غير ما قالوا فقال :
(فسكفروا به فسوف يعلمون) أى ثم بعد أن جاءهم الذكر والكتاب المهيمن
على كل الكتب أعرضوا عنه وكفروا به ، وأنهم سوف يعلمون عاقبة عنادهم
وما سيحل بهم من نعمتنا وعذابنا .

ونحو الآية قوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِّيَكُونُوا
أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا » .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد ، على كفرهم بربههم
وتكذيبهم برسوله صلى الله عليه وسلم :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ
(١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤)
وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ
بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨)
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٨٢) .

شرح المفردات

كَلْتَنَا : وعدنا ، المنصورون : أى الغالبون فى الحرب وغيرها ، جندنا : أى أتباع
رسلنا ، والساحة : المكان الواسع .

المعنى الجملى

لما هدد سبحانه المشركين بقوله : فسوف يعلمون — أردفه بما يقوى قلب رسوله
صلى الله عليه وسلم بوعده بالنصر والتأييد ، كما جاء فى آية أخرى « كَتَبَ اللَّهُ
لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

الإيضاح

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم
الغالبون) أى ولقد سبق وعدنا أن العاقبة للرسول وأنبياءهم فى الدنيا والآخرة ،
فننصرهم على أعدائهم بقهرهم والنيل منهم بقتلهم أو تشريدهم أو إجلائهم عن
الأوطان أو أسرهم أو نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
نَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

(فتولّ عنهم حتى حين) أى وأعرض عنهم واصبر على أذاهم وانتظر مدة قليلة
وسنجعل لك العاقبة والنصرة والتأييد .

(وأبصرهم فسوف يبصرون) أى انظر وارقب ما يحل بهم من العذاب والנקال
بمخافتك وتكذيبك ، وسوف يبصرون انتشار دينك وإقبال الناس عليه أفواجا
زرافات ووحدانا مصداقا لوعده بقوله « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » .

ثم ويخبرهم على استعجالهم العذاب حين قالوا يا محمد أرنا العذاب الذي تخوفنا به وعجله لنا فنزل .

(أفبعذابنا يستعجلون) قبل حلوله ؟ وهم إما فعلوا ذلك لتكذيبهم به وكفرهم بك ، والله منزله عليهم لا محالة .

(فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) أى فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس اليوم يومهم لهلاكهم ودمارهم ، وفي الصحيحين عن أنس قال : « صبح رسول الله خير فلما خرجوا بثؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله . محمد والخيس - الجيش - ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، خربت خير ، إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » رواد البخارى .

قال صاحب الكشف : مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروهم فأنكره ، بجيش أنذر بهجومه قوماً بعضُ ناصحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم ولا دبروا أمرهم تديراً ينجيهم حتى أتاهم بفنائهم بفتنة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم اه ثم أكد ماسبق من وقوع الميعاد غيباً تؤكد مع ما فيه من تسليية لرسوله إثر تسليية فقال :

(وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) أى وأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المشركين وخلصهم وفريتهم على ربهم إلى أن يأذن بهلاكهم ، وانظر إليهم فسوف يرون ما يحل بهم من عقابنا حين لا تنفعهم التوبة .

ثم ختم سبحانه السورة بخاتمة شريفة جامعة لتنزيهه سبحانه وهى فى عم لا يليق به مع وصف نفسه بصفات الكمال ومدحه للرسول السكرام فقال :

(سبحانه رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) أى تنزيها لربك أيها الرسول رب القوة والغلبة عما يصفه به هؤلاء المعتزون من مشركى قريش من نحو قولهم : ولد الله . وقولهم : الملائكة بنات الله . وأمنة من الله

للمرسلين الذين أرسلهم إلى أمهم — من العذاب الأكبر ومن أن ينالهم مكروه من قبله تعالى ، والحمد لله رب العالمين الجن والإنس خالصا له دون سواء ، لأن كل نعمة لعباده فهي منه .

وهذا تعاليم من الله لمؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يغفلوا عنه ، روى البغوى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « من أحب أن يكتل بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فيمكن آخر كلامه من مجلسه : سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

وعن أنى سعيد الخدرى قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين يقول فى آخر صلاته أو حين ينصرف « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بمجل ما حوته السورة من موضوعات

- (١) التوحيد ودليله فى الآفاق والأأنفس .
- (٢) خالق السموات والأرض ووصفه سبحانه لذلك .
- (٣) إنكار المشركين للبعث وما يتبع ذلك من محاورة أهل الجنة لأهل النار وهم يطلعون عليهم .
- (٤) وصف الجنة ونعيمها .
- (٥) قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وإسماعيل .
- (٦) دفع فرية قائلها المشركون وتوبيخهم عليها إذ قالوا : للملائكة بنات الله .
- (٧) تنزيه الله عن ذلك .
- (٨) بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوى الأحلام الضعيفة المستعدة للإضلال .
- (٩) وصف الملائكة بأنهم صافون مسبحون .
- (١٠) مدح المرسلين وسلام الله عليهم .
- (١١) حمد الله وثناؤه على نفسه بأنه رب العزة ورب الخلق أجمعين .

سورة ص

هى مكية ، نزلت بعد سورة القمر ، وعدة آياتها ثمان وثمانون
ومناسبتها لما قبلها أنها جاءت كالتممة لها من وجهين :

- (١) إنه ذكر فيها من قصص الأنبياء ما لم يذكر في تلك كداود وسليمان .
(٢) إنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار أنهم قالوا : لو أن عندنا ذكرا من
الأولين . لكانا عباد الله المخلصين ؛ وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم — بدأ عز اسمه هذه
السورة بالقرآن ذى الذكر وفصل ما أجله هناك من كفرهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢)
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ بِمَنْصُورٍ (٣) وَعَجَبُوا
أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ
الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ
امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي
الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلِ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلَ لَمَا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْنَابِ (١٠) جُنْدُهُ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ
الْأَحْزَابِ (١١) .

شرح المفردات

الذكر : الشرف كما قال « وَإِنَّهُ لَدِكُّكَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » الذين كفروا هم رؤساء قريش ، فى عزة : أى فى استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه ؛ والعزة أيضا الغلبة والقهر كما قالوا فى أمثالهم : من « عزيز » أى : من غلب سلب ، شقاق أى مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم : فلان فى شق غير شق صاحبه ، فنادوا أى استغاثوا ، لات : أى ليس الحين ، مناص : أى فرار وهرب ، عجاب أى بالغ فى العجب نحو قولهم طويل وطوال أى إنه من نوائب الدهر فلا حيلة لنا إلا الصبر عليه ، الملة الآخرة هى ملة النصارى ، اختلاق : أى كذب وافتراء ، فآيترقوا : أى فليصعدوا ، فى الأسباب : أى فى الممارج والطرق التى يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش ، قاله مجاهد وقتادة . ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب الدنيا ينلته وإن يرق أسباب السماء بسلم

جندما : أى جند كثير عظيم كقولهم « لأمر ماجدع قصير أنه » ، مهزوم أى مغلوب ، الأحزاب : أى المجتمعين لإيذاء محمد وكسر شوكرته وإبطال دينه .

الإيضاح

(ص) تقدم الكلام فى مثل هذا سرارا وقلنا إن هذه حروف يراد بها تنبيه المخاطب للإصغاء إلى ما يراد بعده من الكلام لأهميته نحو ألا ، ويا وينطق باسمائها فيقال (صاد) بالسكون .

(والقرآن ذى الذكر) أى أقسم بالقرآن ذى الشرف والرفعة إنه لمعجز وإن محمدا نصادق فيما يدعيه من النبوة وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحر ، وإن كتابه المنزل من عنده :

ثم بين السبب الحقيقى فى كفرهم فقال :

(بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) أى لأنهم ما كفروا به لأنهم لم يجدوا فيه

ما يصلح حالهم في دينهم ولا دنياهم ، بل كذبوا به لاستكبارهم عن اتباع الحق ومشاقته . نرسوله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على مخالفته .

ثم حذرهم وخوفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسالهم فقال :

(كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) أى وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم فاستغاثوا حين حل بهم العذاب فلم ينفع ذلك عنهم شيئاً ، فقد فات الأوان وحل البأس ، فبئس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب .

ونحو الآية قوله : « فَمَعَا رَآؤُا بِأَسْنَأ قَالُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَحَدَّةُ » وقوله « حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ » وقوله « فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَأ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْتَكِضُونَ لَا يَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَا كِنِكُمْ لَعَسْكُمْ تَسْأَلُونَ » . (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) أى وما كان أشد تعجبهم حين جاءهم بشر مثلهم يدعى النبوة ويدعو إلى الله وليس له من الصفات الباطنة والظاهرة في زعمهم ما يجعله يمتدح عنهم ويختص بهذا المنصب وتلك المنزلة الرفيعة ، ومن ثم قالوا ما هو إلا خداع كذاب فيما ينسبه إلى الله من الأوامر والنواهي . ثم ذكر شبهتهم في إثبات كذبه من وجود ثلاثة :

(١) (أ جعل الألهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) أى أزعج أن المعبود إله واحد لا إله إلا هو ؟ وقد أنكروا ذلك وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، من أجل أنهم تلفوا عن آباءهم عبادة الأوثان وأشرته قلوبهم ، فلما دعاهم إلى نحو ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا منه وقالوا إن آباءهم على كثرتهم ورجاحة عقولهم لا يعقل أن يكونوا جاهلين مبطلين ويكون محمد وحده محقاصادقا - ولا شك أن هذا استبعاد فقط ولا مستند له من عقل ولا قل .

ونحو الآية قوله « أَ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ

النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِخْرٌ مُبِينٌ » .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : « لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا :

إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فتهبته فبعث أبو طالب إليه ف جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل واحد ؛ قال نخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا قرب عمه ، فجلس عند الباب فقال له أبو طالب : أي ابن أخى — ما لقومك يشكوك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله فقال يا عم : إنى أريدكم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية ، ففرحوا لكلمته وتقبلوه فقال القوم ما هى وأبيك ، لنعطينكها وعشرا ، قال صلى الله عليه وسلم (لا إله إلا الله) فقاموا فرعين ينفضون أثوابهم ويقولون : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّحْتَابٌ » فنزل من هذا الموضع إلى قوله : « بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذُوقُوا عَذَابَ » .

(وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم) أى وانطلق أشرف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكثرتهم رسول الله وشاهدوا نصيبه فى الدين ويأسوا بما كانوا يرجون منه بوساطة عمه ، يتحاورون بما جرى ويقلّبون وجوه الرأى فيما يفعلون ويقولون : اثبتوا على عبادتها محتملين القدر فيها والغرض من شأنها والاستهزاء بأمرها . ثم عللوا الأمر بالصبر بما شاهدوه من تصليه عليه السلام فقالوا :

(إن هذا لشيء يراد) أى إن هذا الأمر عظيم يريد محمد بمضاءه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلوّيه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان ،

أو يرجى فيه المساعدة بشفاعة إنسان ، فاقطعوا أطاعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبروا على عبادة آلهتكم .

ثم ذكروا أيضا ما ظنوا أن فيه إبطالا لدعواه فقالوا :

(٢) (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة) أى ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة وهى ملة النصارى ، فإنهم يقولون بالتثليث ويزعمون أنه الدين الذى جاء به عيسى عليه السلام وحاشاه ، وإنما خصوا النصرانية لأنها آخر الأديان المعروفة لديهم من أديان أهل الكتاب .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(إن هذا إلا اختلاق) أى ما هذا إلا افتراء وكذب لاحقيقة له ، وليس له مستند من دين سماوى ولا من عقل فيما يزعمون .

ثم أخذوا يتكرون اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالوحى وهو مثلهم أو أدون منهم فى الشرف والرياسة فيما يزعمون فقالوا :

(٣) (أنزل عليه الذكر من بيننا ؟) أى إنه من البعيد أن يختص محمد من بيننا بانزال القرآن عليه وفيما ذو الجاه والشرف ، والرياسة والكياسة كما حكى الله عنهم أن قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ » ثم نعى عليهم تعرضهم لهذا التفضيل وإعطاء النبوة لمن يريدون فقال : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ لَنَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » فهذا منهم دليل على الجهل وقلة العظة .

ثم ذكر أن سبب الاستبعاد هو الشك فى أمر القرآن وميلهم إلى التقليد فقال : (بل هم فى شك من ذكرى) أى بل هم فى شك من تلك الدلائل التى لو تأملوا فيها لزال هذا الشك عنهم ، إذ هى دالة بأنفسها على صحة نبوته ، ولكنهم حين تركوا النظر والاستدلال لم يصلوا إلى الحق فى أمره .

ثم ذكر أن سبب هذا الشك هو الحسد المحجىء النبوة له من بينهم فقال :
 (بل لما يذوقوا عذاب) أى إنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذا قوه زال عنهم
 ما بهم من الحسد والشك حينئذ .
 والخلاصة — إنهم لا يصدقون إلا أن يمسهم العذاب فيضطروا حينئذ إلى
 التصديق بذكرى .

ثم أنكر عليهم استبعاد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وطلبهم نبوة غيره من
 صناديد قريش فقال :

(أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) أى بل أملكون خزائن رحمة
 الله القهار لخلقه ، الكثير المواهب لهم ، المصيب بها مواقعها — فيتصرفوا فيها على
 حسب ما يريدون ، ويمنحوها من شاءوا ، ويصرفوها عن لا يحبون ، ويتحكموا
 فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم ؟
 والخلاصة — إن أمر النبوة ليس بأيديهم بل بيد الله العليم بكل شىء « الله
 أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ أَتَيْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا الْأُمْسَكْتُمْ
 خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » .

ثم ارتقى إلى ما هو أشد في الإنكار ، فأمرهم أمرتهم بارتقاء الأسباب فقال :
 (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليترقوا في الأسباب) أى بل ألهم
 ملك هذه الأجرام العلوية والأجرام السفلية حتى يتكلموا في الشئون الغيبية ويفكروا
 في التدابير الإلهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء ؟ فإن كان الأمر كما يزعمون
 فليصعدوا في المعارج ويتوصلوا إلى السموات ، وليدبروا شئونها حتى يظن صدق
 دعواهم ، إذ لا سبيل إلى التصرف فيها إلا بذلك .

والخلاصة — إنه ليس لهم شىء من ذلك ، فلا سبيل لهم إلى توزيع رحمة الله

على حسب ما يريدون ، وإعطاء النبوة لمن يشاءون ، فذلك من شئونه تعالى فهو الذي يفضل من يشاء من عباده على من يشاء .

ثم وعد سبحانه نبيه بالنصر والغلبة عليهم فقال :

(جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) أى هؤلاء الذين يقولون هذه المقالة ، ويزعجون رحمة ربك على حسب أهوائهم — جند كثير من الكفار المتحزبين على المؤمنين — مغلوبون في الوقائع التي ستكون بينك وبينهم ، وستنتصر عليهم كما حدث في بدر وغيرها ، فأتى لهم تدبير الأمور الغيبية ، والتصرف في الخزائن الربانية . وهذا خبر من الله لنبيه وهو بمكة ولم يكن له يومئذ جند — أنه سيهزم جند المشركين ، فجاء تأويله يوم بدر وغيره من المواقع — وهذا من أعظم المعجزات وأدل الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق كتابه وأنه من عند الله لامن عند البشر .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَمَثُودُ
وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ
الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْمَرًا
مِنْ فَوْاقِ (١٥) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه أنهم إنما توانوا وتكاسلوا عن النظر والاستدلال لأنهم لم ينزل بهم العذاب — بين في هذه الآيات أن أقوام الأنبياء الماضين كانوا كذلك حتى حاق بهم سوء العذاب .

وفي هذا تحذير لأولئك الكافرين الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

ذكر الله تعالى في هذه الآيات ستة أقوام من الذين كذبوا رسلهم وما آل إليه أمرهم لتكون ذكرى لأولئك المكذبين من قومه ، فيرعووا عن غيهم ويشوبوا إلى رشدهم فقال :

(١) (كذبت قبلهم قوم نوح) أى كذب قوم نوح رسلهم وقالوا إنه مجنون وهزموا به ، وكلمة الحلف في الدعوة زادوا عتوا وعنادا ، فدعا ربه وقال : « رَبِّ لَا تَذَرْنَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » ولما أصرّوا على تكذيبهم وعنادهم أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، ونجى الله نوحا ومن آمن معه كما قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّطَهَّرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُوسِرَ . تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا » .

(٢) (وعاد) وهم قوم هود وقد كذبوه فاهلكهم الله بريح صرصر عانية كما قال في سورة الحاقة : « فَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا . وَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُفْجَازُ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ . فَعَلَّ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » .

(٣) (وفرعون ذو الأوتاد) وقد بعث الله إليه موسى وأيده بآياته التسع فأصرّ على الجحود والعناد وبنى وتجير وقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذ الله أخذ عزيز مقتدر وأغرقه وقومه ونجى موسى وقومه بنى إسرائيل كما قال في سورة يونس : « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ
لَتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً .

و ذو الأوتاد : أى ذو الملك الثابت ، وأصله للبيت المطنب بأوتاد وهو لا يثبت
بدونها ، ثم استعمل فى إثبات العز والملك كما قال الأسود بن يعفر :
وَأَقْدَغْنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

(٤) (ونمود) وقد جاء ذكرهم فى عدة سور أرسل الله إليهم صالحا وكانت
الناقة له آية فكذبوه فمقرؤها فأرسل عليهم صاعقة فأهلكتهم وجعلتهم كهشيم
المحتظر كما جاء فى سورة القمر : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ . فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا
نَبْتَعِيهِ إِنْآ إِذَا أَفَى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ - إِلَى أَنْ قَالَ - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ » .

(٥) (وقوم لوط) وقد سبق ذكر قصصهم فى عدة سور من الكتاب الكريم
وذكر ما حل بهم من العذاب ؛ فمنها قوله فى سورة القمر : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
بِالنَّدْرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ » .

(٦) (وأصحاب الأيكة) والأيكة : الشجر الملتف بعمقه على بعض ، وهم قوم
شعيب ؛ وقد ذكر الله قصصهم فى كثير من السور ، فمنها ما جاء فى سورة الحجر :
« وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ . فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ » .

(أولئك الأحزاب) أى هؤلاء الذين تحزبوا على الرسل ، وهم كالأحزاب الذين
تحزبوا عليك .

ثم بين سبب انهزامهم وعقابهم فقال :

(إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) أى إن كل هذه الأمم الخالية والقرون
الغابرة ، وقد كانوا أشد منهم قوة كذبوا أنبياءهم فحل بهم العذاب ، فكيف بهؤلاء
الضعفاء إذا نزل بهم ما لا قبل لهم به من عذابى .

ثم بين عقاب كفار قريش إثر بيان عقاب أضرابهم فقال :
 (وما ينتظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) ينظر؛ أى ينتظر كقوله تعالى :
 « إِنظِرُونَا تَقْتِسِنَ مِنْ نُورِكُمْ » وهؤلاء أى كفار مكة ، والفواق : الزمن الذى
 بين الحلبتين ، والصيحة : النفخة الثانية التى بها تقوم الساعة أى ما ينتظر هؤلاء
 الكفار إلا تلك النفخة — بلا توقف مقدار فواق .
 والخلاصة — إذا حل هذا الميقات لا يتأخرون عنه أبدا .

وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ

شرح المفردات

القط : النصيب والحظ والكتاب بالجوائز والجمع القطوط ، قال الأعشى يمدح
 النعمان بن المنذر :

وَلَا الْمَلَكُ النِّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيَّتُهُ يَغْبِطُهُ يُعْطَى الْقُطُوطَ وَيَأْفِقُ
 ويأفق : أى يصلح .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا إن القوم إنما تعجبوا لشبهات تتعلق بالتوحيد والنبوات والمعاد ،
 فأشاروا إلى الأولى بقولهم : أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ، وإلى الثانية بقولهم : أُنْزِلْ
 عَلَيْنَا الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، وهنا أشار إلى الثالثة بقوله : وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا
 سخرية وتهكما حين سمعوا بالمعاد ، وأن هناك دارا أخرى يحاسبون فيها ويجازون
 على ما يعملون ، ثم أمر رسوله بالصبر على أذى المشركين وعلى كل ما يقولون فى شأنه
 من أنه شاعر وأنه مفتر كذاب .

الإيضاح

(وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) أى وقالوا استهزاء وسخرية حين سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة — ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب الذى توعدتنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة .

وقائل ذلك على ما روى عن عطاء الضر بن الحرث بن علقمة بن كلفة وهو الذى قال فيه الله تعالى : « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » أو أبو جهل على ما روى عن قتادة ، ورضى بهذه المقالة الباقون ، ومن ثم أسندها إليهم جميعا .

ولما بلغ الكفار فى السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قالوا إنه ساحر كذاب ، وقالوا ربنا عجل لنا قطنا — أمره الله بالصبر على سفاهتهم فقال :

(اصبر على ما يقولون) أى اصبر على ما يقول مشركو قومك لك مما تكره ، فإننا ممتحنوك بالمكاره كما امتحنا سائر من أرسلنا من قبلك ، ثم جاعلو الظفر لك على من كذبت وشاقتك ، سنتنا فى الرسل الذين أرسلناهم إلى عبادنا من قبلك .

قصص داود عليه السلام

وَإِذْ كُرِّهَ عَبْدُنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخَطَابَ (٢٠) .

شرح المفردات

الأيدي والآد : القوة فى العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، أَوَّابٌ : أى راجع إلى الله وإلى طاعته من قولهم آب . إذا رجع ، قال عبيد بن الأبرص :

وكلّ ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

والإشراق : أى وقت الإشراق؛ يقال أشرقت الشمس أضاءت ، وشرقت : طلعت ، محشورة : أى محبوسة فى الهواء ، أواب : أى منقاد يسبح تبعاله ، شددنا ملسكه : أى قويناه بالهيبة والنصر ، والحكمة هى إصابة الصواب فى القول والعمل ، الفصل : الحاجز بين الشيتين ، وفصل الخطاب : الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بالصبر على أذى المشركين — أردف ذلك بذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاق والأذى مثل ما حدث له فصبروا حتى فرّج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم — ترغيباً له فى الصبر وإيذاناً ببلوغه ما يريد كما كان ذلك عاقبة من قبله .

الإيضاح

(واذا ذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب) أى واذا ذكر لقومك قصة عبدنا داود ذى القوة فى الطاعة والوفاء فى الدين ، فقد كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر وورد فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفرّ إذا لاقى ، وأنه كان أوّاباً » أى رجاء إلى الله تعالى فى جميع شئونه ، فكان كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله استغفر الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة » .

وأخرج البخارى فى تاريخه عن أبى الدرداء قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود وحدث عنه قال : كان أعبد البشر » .

وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لأحد أن يقول إني أعبد من داود» .

ثم عدد سبحانه نعمه عليه فقال :

(١) (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه حين إشراق الشمس وآخر النهار . وتسبيحها معه تقديسها لله بحال تليق بها ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر يدل على اختصاصهما بمزيد شرف العبادة فيهما ، فإن لفظة الأزمنة والأمكنة أثرا في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات .
(والطيور محشورة) أى وسخرنا له الطير حال كونها محبوسة في الهواء تسبح بتسبيحه ، فإذا مر به الطير وهو ساجح في الهواء وسمعه يترنم بقراءة الزبور يقف ويسبح معه .

وفى هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل والصوت المتقبل الذى يُعجِبُ له الحيوان الأعجم فما بالك بالإنسان ؟ .

ثم أكد ما سلف من تسخيرها له فقال :

(كل له أبواب) أى كل من الجبال والطيور مطيع مرجاع إلى أمره يسبح تبعاله .
(٢) (وشددنا ملكه) أى قوينا ملكه بكثرة الجند وبسطة الثراء والهيبه ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء .

(٣) (وآتيناه الحكمة) أى وأعطيناه العلم الكامل والإتقان للعمل ، فهو لا يقدم على عمل إلا إذا عرف موارده ومصادره ، مبادئه وغاياته على نحو ما قال الشاعر :

قدّم لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقاً عن غيرة زجلاً

(٤) (وفصل الخطاب) أى وألهمناه حسن الفصل فى الخصومات بما يستبين به وجه الحق بلا جنف ولا ميل مع الهوى ، وهذا يحتاج إلى فضل كبير فى العلم ، ومزيد فى الحلم ، وتفهم أحوال الخصوم ، ورباطة الجأش ، وعظيم الصبر ، والذكى الذى لا يتوافر لكثير من الناس .

قضية من قضاياها التي حكم فيها

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى
 دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَ خَصْمَانِ بَنَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاخْتَكَمَ
 يَبْنَئْنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي
 لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْمَةً وَلِي نَعْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي
 فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
 مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)
 فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّآبٍ (٢٥) .

شرح المفردات

هل : هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما يرد بعدها ، والخضم :
 جماعة الخاضعين ؛ ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا ، قال الشاعر :

وَحَصْمٌ غَضَابٌ يَنْفُضُونَ لِحَاهُمْ كَنْفُضَ الْبَرَازِينَ الْعِرَابِ الْمَخَالِيَا

وتسوروا : أى أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، والمحراب : الغرفة التي كان
 يتعبد فيها ويشغل بطاعة ربه ، والفرع : انقباض ونفاز يعتري الإنسان من شيء
 خفيف ، بغي : أى جار وظلم ، ولا تشطط : أى لا تبعد عن الحق ولا تجرف في الحكومة ،
 سواء الصراط : أى وسط الطريق ، والنعمجة أنثى الضأن ويكنى بها عن المرأة
 كما قال عنتره :

يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم
 فبعثت جاريتي فقلت لها اذهبي فتجسسي أخبارها لي واعلمي
 قالت رأيت من الأعداء غرة والشاة ممكنة لمن هو مرمم
 أ كفلنيها : أى ملكنيها ؛ وأصل ذلك اجملني أ كفلها كما أ كفل ماتحت يدي ،
 وعزتي : أى غلبي ، وفي المثل من عز بر : أى من غلب سلب ، وقال الشاعر :
 قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح
 في الخطاب : أى في مخاطبته إياي ومحاجته ، إذ قد أتى بحجاج لم أستطع رده ، والخطاء
 هم المعارف أو الأعوان ممن بينهم ملازمة شديدة وامتزاج : واحد هم خليط ، فتناء :
 أى ابتليناه ، خر : أى سقط ، راكمها : أى ساجدا ؛ وقد يعبر بالركوع عن السجود
 قال الشاعر :

فخر على وجهه راكماً وتاب إلى الله من كل ذنب
 وأناب : أى رجع إلى ربه ، والزاني : القرب من الله ، والمآب : المرجع .

المعنى الجملي

بعد أن مدح سبحانه داود وأثنى عليه بما ساف — أردف ذلك بذكر نبأ عجيب
 من أنبائه مشوقاً إليه السامع ومعجباً له .

الإيضاح

(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا
 لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء
 الصراط) أى هل علمت ذلك النبأ العجيب ، نبأ الجماعة الذين تسلفوا سور غرفة
 داود ودخلوا عليه وهو مشغول بعبادة ربه في غير وقت جلوسه للحكم ، وحين رآهم

فزع منهم ظننا منه أنهم جاءوا لاغتيالاه ، إذ كان منفردا في محرابه للعبادة ، فقالوا له :
لا تخف منا ، نحن اثنان جار بمعضنا على بعض فاحكم بيننا حكما عادلا ولا تجرّ واهدنا
إلى الطريق السويّ ، ولا نشطط في الحكومة .

ثم فصلوا موضع الخصومة فقالوا :

(إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أ كفلنيها وعزنى
في الخطاب) أى إن أخى هذا يملك تسعا وتسعين شاة وأملك شاة واحدة ، فقال
ملكنيها وغلبنى في الحاجة ، فجاء بحجج لم أطلق لها ردّا ولا دفعا .

ثم ذكر سبحانه حكم داود في الواقعة فقال :

(قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه) أى قال داود بعد أن أقر المدعى
عليه بما قال المدعى : لقد ظلمك بطلبه منك إضافة نعجتك إلى نعاجه .

ثم استطرد إلى بيان أن الظلم من شيمة الإنسان فقال :

(وإن كثيرا من الخاطئاء ليبلغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وقليل ما هم) أى وإن كثيرا ممن يتعاملون معا يجور بعضهم على بعض
حين التعامل كما قال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فليعلية لا يظلم

إلا من يخافون ربهم ويؤمنون به ويعملون صالح الأعمال ، فإن نفوسهم
تعرف عن الظلم وترعوى خشية من خالقها ، وما أقل هؤلاء عددا ، وأندرهم وجودا
كما قال : « وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » .

ثم ذكر أن داود كان قد ظن أنهما قد جاءا للاغتيال ثم تبين له غير ما كان
قد ظن فقال :

(وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب) أى وظن داود أن
دخولهما عليه في ذلك الوقت ومن تلك الجهة ابتلاء من الله تعالى لأجل أن يفتنواوه ،

فلم يقع ما كان قد ظنه فاستغفر ربه من ذلك الظن ؛ إذ لم يقع ما كان قد ظنه فخرّ ساجداً ورجع إلى ربه طالبا منه المغفرة لما فرط منه .

ثم بين أنه أجاب طلبه وغفر له إنه كان غفورا رحيمًا فقال :
(فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى فغفرنا له ما وقع منه من ذلك الظن ، وإنه لمن المقر بين لدينا وله حسن المرجع وهو النعم في الجنة .

هذا خلاصة ما رآه أبو حيان في البحر في تفسير هذا القصص ، وهو حسن .
بيد أنا نرى أن ظن داود في الخصمين وقد دخلا عليه في مثل هذا الوقت ومن غير الباب لإرادة الاغتيال — ظن له ما يؤيده من الدلائل وشواهد الحال ، فلا يمكن أن يكون هذا الظن إثماً حتى يطلب من ربه المغفرة عليه — إلى أن هذه الخصومة التي ترافعا إنيها وطبأ منه الحكومة — ليست من معضلات المشاكل التي يحتاج فيها إلى حكم داود ، إلى أنه قد كان لهما مندوحة منها بأن ينتظرا إلى اليوم التالي حتى يجلس للقضاء ولا يضيع عليهما حق إذا هما تأخرا يوما آخر ، لأن هذه الواقعة إن كانت على الوضع الذي قاله ، فليس فيها ما يدعو إلى المبادرة والتقاضى في غير موعد القضاء والوصول إلى القاضى على تلك الحال المريبة — فلا بد أنهما قد كانا يريدان غرضاً آخر أخفياه غير ما كان قد ظهر منهما ، ذلك الغرض هو إرادة الاغتيال ، وما منعهما من تنفيذه إلا يقظة الحراس والخدم والحشم وإحاطته بهما ، فاخترا سبباً لجيئهما إليه وهو مجيئهما للاستفتاء فيما خفى عليهما ، ولأجله تسورا الحراب ، وما يرشد إلى هذه النية المبيتة نية الاغتيال أن تهجم الناس على البيوت للتقاضى ليس بالمألوف ولا المعروف في أى عصر ، إلى أن هذه الفتوى لا تحتاج إلى مثل داود ، فهي فتوى جاءت بنت ساعتها لم يفكرا فيها من قبل ، والذي ألجأهما إليها يقظة الحرس وظنهما أنهما هالكان لا محالة إذا لم يذكر سببا يسوغ لهما دخول القصر في ذلك الحين ، وما يؤيد هذا أن اغتيال الأنبياء كان معروفا في بني إسرائيل فقد قتلوا إسماعيا وزكريا كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ »

وحين علم داود غرضهما وتظاهرت عليه الأدلة هم أن ينتقم منهما ويجازى السيئة بمثلا « وَجَزَاهُ سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا » ولكنه رأى أن مقام النبوة أمثل به الصفح والعفو كما قال : « كَفَنَ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ومن ثم استغفر ربه لما كان قد عزم عليه من الانتقام تأديبا لهما ولأمثالهما .

وما جاء في بعض كتب التفسير أن المراد بالنعاج النساء كما جاء كناية عن ذلك في كلام العرب كما قال * كنعاج الفلا تَعَسَّغْنَ رَمَلًا * فذلك يتوقف على أن كلمة (نعجة) في اللغة العبرية تستعمل كناية عن المرأة كما هي في العربية ، وتأباه كلمة (الخلطاء) وكذلك ما يقال من أن الخصمين كانوا ملكين فإن (تسوروا) تأباه لأن الملائكة أجسام نورانية لا أجسام كثيفة فلا حاجة إلى التسور ، إلى أن ما جاء من القصص عن ذكر السبب في محيى الملكين مما يخل بمنصب النبوة ، وفيه نسبة الكبر إلى الأنبياء ، فيجب علينا أن نطرحه ؛ إذ يبطل الوثوق بالشرائع — إلى ما فيه من مطعن لأرباب الأديان الأخرى على المسلمين ، إذ نسبوا إلى الأنبياء ما يجل مقامهم عنه ، ويأباه عامة الناس فضلا عن الأنبياء الذين اصطفاهم الله لرسالاته ، ومن ثم أترعن على رضى الله عنه أنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين .

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه علينا قصص داود والخصمين — أردف ذلك ببيان أنه فوض إلى داود خلافة الأرض وأوصاه بالحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى

حتى لا يضل عن سبيل الله ، ثم ذكر أن من ضل عن سبيله فله شديد العذاب وسوء المنقلب ، إذ قد نسي يوم الحساب والجزاء .

الإيضاح

(يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) أى يا داود إنا استخلفناك في الأرض ، وجعلناك نافذ الحكم بين الرعية ، لك الملك والسلطان ، وعليهم السمع والطاعة ، لا يخالفون لك أمرا ، ولا يقيمون في وجهك عصا .
ثم ذكر ما يستتبع ذلك فقال :

(فاحكم بين الناس بالحق) المنزل من عندى والذي شرعته لما فيه من المصلحة في الدنيا والآخرة لمبادئ .

ثم أكد ما سلف بالنهى عن ضده فقال :

(ولا تتبع الهوى) في الحكومة وغيرها من أمور الدين والدنيا .

وفى هذا إرشاد لما يقتضيه منصب النبوة ، وتنبيه لمن هو دونه لسلوك هذا الطريق القويم .

ثم بين سوء عاقبة ذلك فقال :

(فيضلك عن سبيل الله) أى فيكون اتباعك للهوى سببا في الضلال عن الدلائل التى نصبت ، والأعلام التى وضعت ، للإرشاد إلى سبيل السلام ، بإصلاح حال المجتمع في دينه ودنياه ، وتهذيبه حتى يسلك طريق الحق بينه وبين ربه ، وبين الناس .

ثم بين غائلة الضلال ووخامة عاقبته فقال :

(إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أى إن الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معالمة — لهم من الله العذاب الشديد

يوم الحساب لنسيانهم ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت ، فمن دسئى نفسه وملك بها سبيل المعاصى فقد حق عليه العذاب الذى كتبه على العصاة جزاء وفاقا على أعمالهم التى كسبوها بأيديهم .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩) .

شرح المفردات

باطلا : أى عبثا ولعبا ، ويل : أى هلاك ، مبارك : أى كثير المنافع الدينية والدنيوية ، ليدبروا : أى ليتفكروا ، ليتذكروا : أى ليتعظوا ، الألباب : واحدها باب ، وهو العقل ، وقد يجمع على ألبّ ويفك إدغامه فى ضرورة الشعر ، قال الكميت :
إليكم ذوى آلِ النبي تطلّعت نوازعُ من قلبى غطاءً وألبُّبُ

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يضلون عن سبيل الله لهم العذاب الشديد يوم الحساب لظنهم أنه ليس بكائن — أعقب هذا ببيان أن هذا اليوم آت لا ريب فيه ، لأنه سبحانه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقهم لعبادته وتوحيده ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيعين ويعذب الكافرين ، ثم أردف ذلك ببيان فضل القرآن الذى أنزله على رسوله هاديا للناس ومنقذا لهم من الضلالة إلى الهدى ، وإذا هم تدبروا آياته وانعظوا محفلاتها سعدوا فى الدارين ، وبلغوا السماكين ، وكانوا سادة العالم أجمع .

الإيضاح

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) أى وما أوجدنا السماء وما فيها من زينة ومنافع للناس ، والأرض وما فيها من فوائد في ظاهرها وباطنها لهم ، وما بينهما مما يعلمون ومما لا يعلمون — لهوا ولعبا ، بل خلقناها مشتملة على حكم باهرة ، وأسرار بالغة ، ومصالح جمّة ، فقد خلقناها للعمل فيها بطاعتنا والالتقاء إلى أمرنا ونهيها ، فإننا لن نترك الناس سدى بل سنعيدهم بعد موتهم إلى حياة أخرى يحاسبون فيها على النقيير والقطمير، والقليل والكثير، ثم يلقون الجزاء على ما كسبت أيديهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ونحو الآية قوله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

ثم بين أن هذا الظن الفاسد قد ظنه الذين كفروا بالله وجحدوا آياته فقال :

(ذلك ظن الذين كفروا) أى إن الذين كفروا بالله وآياته التى نصبها فى الأنفس والآفاق ولم يتدبروا حق التدبر فى خلق هذا الكون البديع الدالّ على قدرة خالقه وعظيم نصره — أنكروا الحكمة فى خلقه وأنه إنما وجد ليكون دليلا على وجود خالقه ، وبرهاننا على وحدانيته كما ورد فى الحديث القدسى « كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف خلقت الخلق فبى عرفونى » .

ونحو الآية قوله : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ »

ثم بين أن لهم سوء المنقلب على بطلان ما اعتقدوا وقبيح ما فعلوا فقال :

(فويل للذين كفروا من النار) أى فيا ويل الكافرين من النار التى أعدت لهم مستقرا ومقاما ، جزاء لهم على ما اجتروحوا من الشرك برهم وخالقهم وكفرانهم بنعمه التى أنعم بها عليهم وإنكارهم لليوم الذى تجازى فيه كل نفس بما قدمت من صالح العمل وسيئه « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ثم بين أن مقتضى عدله وحكمته ألا يساوى بين الذين أحسنوا بالحسنى، والذين اجتروا السيئات ودسّوا أنفسهم بكبير الآثام والذنوب فقال :

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) أى بل أنجعل من آمنوا برّبهم واعتقدوا أنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا شريك له فى ملكه ، وأصلحوا أعمالهم فأدّوا ما يجب للخلق والخالق وأنتموا بما أمر به ربهم على لسان أنبيائه وانتهوا عما نهوا عنه ، فلم يدسّوا أنفسهم بفعل شيء من كبائر الآثام خوفاً من يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، ولا تقبل الشفاعة ولا النداء من أحد « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » . « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » كمن كفروا به وعاثوا فى الأرض فسادا وهاموا فيها على وجوههم ، لا دين يمنعهم ، ولا زاجر يردعهم ، إذ هم ينكرون الجزاء والحساب والإعادة بعد الموت الأولى ويقولون : ما هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلى ، وما يهدكنا إلا الدهر . فأئى مثل هؤلاء أن يرفعوا عن غيٍّ ، أو يكفوا عن معصية ؟ بل هم جهد استطاعتهم يحصلون على اللذات ، ويحترحون السيئات ، بما وسوس إليهم به الشيطان ، أن لا حلال ولا حرام ، ولا جنة ولا نار ، فما هذه إلا أساطير الأولين ، وخزعبلات الموسوسين المتمرّتين .

وإذا كان هذا حقاً واقتضته الحكمة وأوجبته العدالة ، فلا بد من دار أخرى يجازى فيها المطيع ، ويثاب على ما عمل ، ويعاقب فيها العاصى على ما دنس به نفسه من شرك بربه ، واجترأح للأثم والعصيان ومخالفة أمر الواحد الديان . والعقول السليمة ، والفطر الصحيحة ترشد إلى هذا وتؤيده ، وتدلل عليه وتثبتته ، فإننا نرى الظالم الباغى قد يزداد فى دنياه مالاً وولداً ، ويتمتع بصنوف اللذات ، من الدور

والقصور ، والفراش الوثير ، والسكن في الجنات ، ويركب فاره الخيول المطهّمة والمراكب الفاخرة ، ويشار إليه بالبنان ؛ بينما ترى الطمع لربه ، المظلوم من بنى جنسه قد يعيش عيش الكفاف ، ولا يجد ما يقيم به أوّده ، ويسدّ به مخمصته ، أفيكون من حكمة الحكيم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة أن يترك الناس سدى يفعلون ما شاءوا بلا حساب ولا عقاب ، أو ينتصف للمظلوم من الظالم ويرجع الحق لصاحبه؟ وربما لا يحصل هذا في الدنيا ، فلا بد من دار أخرى يكون فيها العدل والإنصاف ، والكيل بالتقسط والميزان ، وتلك هي الدار التي وعد بها الرحمن ، على السنة رسله الكرام ، صدق ربنا ، وإن وعده الحق ، وإن هذا اليوم آت لا شك فيه ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم .

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أنه قال : الذين آمنوا على وحزة وعميدة ابن الحرث رضى الله عنهم ، والمفسدين في الأرض عتبة والوليد بن عتبة وشيبة وهم الذين تبارزوا يوم بدر .

ولما كان القرآن هو الذي يرشد إلى مثل هذه المقاصد الشريفة ، والمآخذ العقلية الصحيحة قال :

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) أى أنزلنا إليك هذا الكتاب النافع للناس المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دينهم ودنياهم ، الجامع لوجوه الصالح ليتدبرها أولو الحجا الذين قد أنار الله بصائرهم فاهتدوا بهديه ، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه ، وتذكروا مواعظه وزواجره ، واعتبروا بمن قبلهم فارعوا عن مخالفته حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين ، ويستأصلهم كما استأصل السابقين ممن بغوا في الأرض فسادا .

وما تدبّره بحسن تلاوته وجودة ترتيله ، بل بالعمل بما فيه ، واتباع أوامره ونواهيه ، ومن ثم قال الحسن البصرى :

قد قرأ القرآن عبید وصبيان لاعلم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ،

حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر ، في خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الورعة ، لا أكثر الله في الناس من مثل هؤلاء .

قصص سليمان عليه السلام حين عرض الصافنات الجياد

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ
رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَفَطِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَغْنَاقِ (٣٣) .

شرح المفردات

الصافن من الخيل : الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرهما
كما قال :

أَلِفَ الصُّفُونِ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا
وقال النابغة :

لَنَا قُبَّةٌ مَضْرُوبَةٌ بِفَنَائِهِمْ عِتَاقُ الْمَهَارَى وَالْجِيَادُ الصَّوْفِينُ

والجياد : واحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل
قاله المبرد ، والخير هنا : الخليل ، توارت : أوى غيت عن البصر ، طفق : شرع ،
المسح : إمرار اليد على الجسم .

الإيضاح

(ووهبنا لداود سليمان) أى وآتيناه داود ابنا يسمى سليمان .

ونحو الآية قوله : « وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ » .

ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال :

(نعم العبد إنه أواب) أى ما أحقه بالمدح والثناء لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى ربه فى أكثر الأوقات ، وفى كثير من المهمات ، اعتقادا منه بأن كل شئ من الخير لا يتم إلا بإعانتة وتوقيته .

ثم ذكر حالا من أحواله التى تستحق الإطراء والثناء فقال :

(إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) أى امدحه حين عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار ، لينظر إليها ويتعرف أحوالها ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهام التى توكل إليها حين الغزو وغيره .

وقد وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين وصفين ممدوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خففا فى جريها ، وقيل وصفها بالصفون لأنه لا يكون فى الهجن ، بل يكون فى العرب الخالص .

(فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) قد يحب الإنسان شيئا وهو يتنى ألا يحبه ، كالمرضى الذى يشتهى ما يزيد مرضه ، والوالد الذى يحب ولده السىء السيرة والخلق ، وقد يحب شيئا وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ، وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان عليه السلام يقول : إني أحب حبي لهذه الخيل ، وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربي وأمره لا عن الشهوة والهوى .
(حتى توارت بالحجاب) أى حتى غابت عني بسبب الغمير المتطاير من سناجبها كما قال المتنبي :

أثارت سناجبها عليها غميرا نوبتغنى عنها عليه لأمكننا

فالمراد أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة « إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » وما زال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهة ، ولبعد المسافة من جهة أخرى .

وبعد أن اطمأن إلى حالها ، وحمد جميل أمرها قال :

(ردها على) فقد كفى ما قامت به من حُضْر دلت به على نجابتها وفراحتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملل ، وفيها الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات ، من غزو وغيره .

ولما ارتاح إليها وسرّ بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جد الجد — أظهر استحسنه لها وفهرسانها .

(فطفق مسعاً بالسوق والأعناق) أى فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهاراً لكرامتها لديه ، إذ هي أعظم الأعوان ، في دفع العدوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها وأنها خلو من الأمراض التي قد تعوقها عن عملها حين البأس .
والخلاصة — إن سليمان احتياطاً للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التي تتكئون منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر بإحضارها وإجرائها أمامه ، وقال إني ما أحببتها للدينيا ولذاتها ، وإنما أحببتها لأمر الله وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره ، أمر راكضها بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها سروراً بها وامتحاناً لأجزاء أجسامها ، ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى فتكون سبباً في عدم أدائها مهمتها على الوجه المرضي .

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)

وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)
هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى
وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) .

شرح المفردات

فَتَنَّا سُلَيْمَانَ : أى ابتليناه بمرض ، جسدا : أى جسما ضعيفا كأنه جسد بلا روح ،
أَنَاب : أى رجع إلى صحته ، لا ينبغي لأحد من بعدى : أى لا ينتقل منى إلى غيره ،
رِخَاء : أى لينه ، أَصَاب : أى قصد وأراد ، فقد حكى الزجاج عن العرب أنها تقول :
أصاب الصواب فأخطأ الجواب ، قال الشاعر :

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المِفْصَلِ

مُقَرَّنِينَ : أى مربوطين ، وَالْأَصْفَادُ : واحدها صَفْد (بالتحريك) وهو الغُلُّ الذى
يجمع اليدين إلى العنق ، قال عمرو بن كلثوم :

فَأَبَاوَا بِالْأَنْهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَ

وَالزُّلْفَى : الكرامة ، وَالْمَآبُ : المرجع .

الإيضاح

(ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسیه جسدا ثم أَنَاب) أى ولقد ابتلينا سليمان
بمرض عُضَال صار بسببه ملقى على كرسیه لشدة وطأته عليه (والعرب تقول
فى الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح) ثم رجع بعد إلى حاله الأولى
واستقامت له الأمور كما كان .

(قال رب اغفرلى) طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى
فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن

هذا في مقام التذلل والخضوع كما قال عليه السلام « إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » .

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن في بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون .

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين ، وكلها متيقة من قصص أهل الكتاب اهـ .

(وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى) أى هب لى ملكا لا يكون لأحد غيرى لعظمه .

قال صاحب الكشف : كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوة وارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربه عز وجل معجزة فطلب على حسب إلهه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ليكون ذلك دليلا على نبوته ، قاهرا للمبعوث إليهم ، وإن تكون معجزة حتى تحرق العادة ، فذلك معنى قوله : لا ينبغي لأحد من بعدى اهـ .

وقيل إنه أراد بقوله : لا ينبغي لأحد من بعدى — الدلالة على عظمه وسعته كما تقول : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال . وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده .

ثم علل المغفرة والهبة معا فقال :

(إنك أنت الوهاب) أى إنك أنت الكثير المواهب والعطاء ، فأجب طلبى ،

وحقق رجائى .

ثم أخبر سبحانه بأنه أجاب دعاءه ووقفه لتحصيل ما أراد وعدّد نعمه عليه فقال :

(١) (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) أى فذلّلنا لطاعته

إجابة لدعوته الريح تجري لينة طيعة له لا تمتنع عليه إلى أى جهة قصد .

ولا تنافي بين وصف الريح هنا بالرخاء ، ووصفها في آية أخرى بكونها عاصفة كما قال : «وَلِسُيُفْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» لأنها تكون بكلتا الحالين على حسب الحاجة إليها ، فهي تشتد حين الحل ، وتلين حين السير .

(٢) (والشياطين كل بناء وغواص) أى وذللتنا لأمره البنائين من الشياطين والغواصين في البحار منهم ، يسخرهم فيما يريد من الأعمال ، فإذا أراد بناء العمار والقصور أو الحصون والقناطر أنجزوها له في الزمن القصير ، وإذا أحب استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار جعلهما حلية لمن في قصوره لبوا طلبه سراحا .

(٣) (وآخرين مقرنين في الأصفاد) أى وآخرين من الشياطين مردة مشاكسين لا يلبون دعوة الداعي ، ويخالفون ما أمروا به فيضعون في السلاسل والأغلال ليتقى شرهم .

وخلاصة ما سلف — إن سليمان قد استعمل الشياطين في الأعمال الشاقة كالبناء والغوص في الماء ، ومن لم يطع أمره وضعه في السلاسل والأغلال ، كفا لشره ، وعقابا له ، وعبرة لغيره .

وإنا لانعلم حقيقة تلك القيود ولا كيف تكون العقوبة ؛ كما لانعلم كيف يشتغل الشياطين وكيف يبنون أو يغوصون ؟ فكل ذلك في عالم لاندرك شيئا من أحواله ، فعلينا أن نؤمن بأن سليمان لعظم ملكه لم يكتف بتسخير الإنس في أعماله بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليهم ، ونتقبل هذا كما قصه القرآن دون دخول في التفاصيل خوفا من الزلل الذي لاتؤمن مغيبته ، ولانصل أخيرا إلى معرفة الحق فيه ، ولنكتف بذلك ، فالعبرة به ماثلة ولا تنز يد فيه .

ثم ذكر سبحانه أنه أباح له أن يتصرف في كل هذا الملك الواسع كما شاء دون زقيب ولا حسيب فقال :

(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) أى وقلنا له : إن هذا الذى أعطيناك من الملك العظيم والبسطة في الغنى والتسلط على عالم لم يسلط عليه غيرك من

العوالم الأخرى — عطاؤنا انحصار بك ، فأعط من شئت ، وامنع من شئت غير محاسب على شيء من ذلك ، فقد فوضنا لك التصرف فيه كما تشاء .

وبعد أن ذكر ما أوتيته من نعم الدنيا التي يحار في إدراكها العقل ، أبان ماله في الآخرة عند ربه من مقام كريم وجنت ونعيم فقال :

(وإن له عندنا لزلفى وحسن مأب) أى وإن له في الآخرة لقربى وكرامة لدينا فنيبؤه جنت النعيم ، ونؤتيه الإجلال والتعظيم ، فهو كما كان سعيدا في الدنيا يكون سعيدا في الآخرة ويفوز برضا ربه وعظيم كرامته . جعلنا الله من كتبته له السعادة في الدارين ، والكرامة والثوبة لديه في جنت النعيم .

قصص أيوب عليه السلام

وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) .

شرح المفردات

أيوب : هو أيوب بن أموص بن أروم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قاله ابن جرير . والنَّصْبُ : (بضم فسكون) والنَّصَبُ (بفتحيتين) كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، عذاب : أى ألم مضر كما جاء في قوله : « أَنِّي مَسَّنِيَ الْعَذْرُ » أركض برجلك : أى اضرب بها على الأرض ، مغتسل : أى ماء تغتسل به

وتشرب منه ، والضعف : الحزمة الصغيرة من الكلال والريحان ، ويقال خفت في يمينه : إذا لم يفعل ما حلف عليه .

الإيضاح

(واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب) أى واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إنى أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضياع الولد .

ومن حديث مس الشيطان له ما روى — إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده ووافر صحته ، فابتلاه الله بالأمراض والأسقام ، وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك ؛ فصبر على ما أصابه من أذى وناله من ألم ممض ، وحسرة تقطع نياط القلب .

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذى لحقه فيه الضر ولا نوع هذا الضر إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكننا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ويمنعهم من لقائه والجلوس معه ، لأن ذلك شرط من شروط النبوة ؛ كما أنا نعلم من وصف الدواء الآتى الذى أوحى الله به إليه أنه من الأمراض الجلدية التى تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء :

(اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) أى حرك الأرض برجلك واضربها بها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب منه فتبرأ مما أنت فيه من المرض .

وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالإكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتال ، وكما تقدم الطب أمكن الطبيب أن بين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد — كما أن فى ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجعة فى تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهرى ، تفيد

بالشرب أيضا كما نرى فى العيون التى فى البلاد التى أنشئت فيها الحمامات فى أوربا و مصر وغيرها ، واستعملت مشاقى ومضحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كماء فيشى وسويسرا وحلوان .

وقد أراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب — ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه وردة بالصبر الجميل . وعن أنس بن مالك : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد لإرجلين كانا من أخص إخوانه به كما يغدون إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أصرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا فى حق » .

ولا شك أن هذا الحديث من أخبار الآحاد التى تصادم أسس الدين الصحيحة من أن الأنبياء يجب ألا يكون فيهم من الأمراض ما ينفّر الناس منهم ، لأن وظيفةهم تبليغ ما أرسلوا به إليهم ، وكيف يجتمع الناس بهم ويتحدثون إليهم وهم فى تلك الحال وهذا البلاء ، ومن ثم فنحن نقف أمام هذه الأخبار موقف الحذر والاحتياط فى قبولها أو القطع بعدم صحتها لخالفها لقطعى لاشك فيه .

وكما دفع عنه سبحانه الضر إجابة لدعائه ، أجاب دعاءه فى أهله وولده فقال :

(ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) أى وجعنا له أهله بعد التفرق والتشتت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا

عليه ، رحمة منا وتذكرة لأولى العقول السليمة ، لنعتبر ونعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة :

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم ما ذا كان حاله في ماله ، فتمسك عن الكلام كما أمسك .

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه في تحلة يمينه فقال :

(وخذ بيدك ضعفا فاضرب به ولا تحنث) أى وخذ حزمة صغيرة من ریحان أو كلاً فاضرب بها ، فيكون ذلك تحلة ليمينك التى حلفتها ، والكتاب لم يبين لنا علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواة أنه حلف على زوجه رحمة بنت إفرائيم ، وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربها إن برئ مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر في يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفى هذا مخرج وفرج لمن اتقى الله وأناب إليه ؛ ولهذا قال عز اسمه :

(إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب) أى إنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه في النفس والأهل والمال من أذى تجازيفه بما فرج كربته ، وأذهب لوعته وليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر وليس فيه شيء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت ؛ وكان يقول في مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم آكل إلا وسمى يتيم ، ولم أبت شعبان ولا كاسيا وسمى جائع أو عريان .

قصص إبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، وإسماعيل ، واليسع
وذى الكفل

وَإِذْ كُنَّا عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْحَاقَ ، وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا
لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَإِذْ كُنَّا نَسْمِعُ ، وَالْيَسَعَ ، وَذَا الْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ،

شرح المفردات

الأيدي : أى القوى فى طاعة الله ، والأبصار : واحدها بصر ؛ ويراد به هنا
البصيرة والفقہ فى الدين ومعرفة أسرارہ ، أخلصناهم : أى جعلناهم خالصين لنا ،
بخالصه : أى بخصله خالصه لا شوب فيها ، هى تذكر الدار الآخرة والعمل لها ،
المصطفين : أى المختارين من أبناء جنسهم ، والأخيار : واحدهم خير وهو المطبوع
على فعل الخير ، هذا ذكر : أى هذا المذكور من الآيات فصل من الذكر وهو القرآن .

الإيضاح

(واذ كر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) أى واذا كر
صبر عبادنا الذين شرفناهم بطاعتنا ، وقويناهم على العمل لما يرضينا ، وآتيناهم البصيرة
فى الدين ، والفقہ فى أسرارہ والعمل النافع فيه .

ثم علل ما وصفهم به من فاضل الصفات وجليل المدح بقوله :

(إنا أخلصناهم بخالصه ذكرى الدار) أى إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا ، عاملين
بأوامرنا ونواهيها ، لاتصافهم بخصله جليلة الشأن لا يساويها غيرها من الخصال ، وهى

تذكرهم الدار الآخرة ، فهي مطمح أنظارهم ومطرح أفكارهم في كل ما يأتون وما يذرون ، ليفوزوا ببقاء ربهم ، وينالوا رضوانه في جنات النعيم .

(وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) أى وإنهم لمن المختارين الذين جبلت نفوسهم على الخير ، فلا تطمح إلى الأذى ولا تميل إلى التباغض والتحاسد ، ولا ترتكب الشرور والآثام .

(واذا ذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل) أى واذا ذكر لقومك من هؤلاء الأنبياء الذين تحملوا الشدائد في دين الله ، وقد ذكرنا شرح هذه الأسماء ، وأوصاف هؤلاء الأنبياء في سورتي الأنعام والأنبياء .

(وكل من الأخيار) أى وكل منهم ممن اختاره الله للنبوة ، واصطفاه من خلقه .

(هذا ذكر) أى هذه الآيات الناطقة بمحاسنهم شرف لهم يذكر بين الناس ، وهذا أسلوب يذكر للانتقال من كلام إلى آخر ؛ كما يقول الجاحظ في كتبه : فهذا باب ثم يشرع في باب آخر ، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا وكان كيت وكيت — وعلى هذا جاء قوله : « هَذَا وَإِنَّ لِلطَّائِفِينَ لَشَرًّا مَّآبٍ » كما سيأتى بعد .

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) .

شرح المفردات

الطاغى : المتجاوز للحد فى ترك الأوامر وفعل النواهى ، جنات عدن : أى جنات استقرار وثبات ، من قولهم : عدن بالمكان أى أقام به ، متكئين فيها : أى متكئين فيها على الأرائك كما جاء فى الآية الأخرى ، أتراب : أى لدات متساوون فى السن حتى لا تحصل الفيرة بينهم ، نفاذ : أى انقطاع .

المعنى الجملى

لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى صلى الله عليه وسلم فوصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا استهزاء : ربنا عجل لنا قطنًا - أمره بالصبر على أذاهم لوجهين : (١) إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره فعليه أن يقتدى بهم ويجعلهم أسوة له .

(٢) ما ذكره فى هذه الآيات وإن بعدها من أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خافه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة وعلى ما يلاقه من المكاره .

الإيضاح

(وإن للمتقين لحسن مآب) أى وإن الله أعطى المتقين الذكر الحسن فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة حسن المرجع .

ثم بين هذا المآب الحسن بقوله :

(جنات عدن مفتحة لهم الأبواب) أى هو جنات استقرار وإقامة ، أبوابها فتحت إكراماً لهم ، وفى هذا إيماء إلى وصفها بالسعة وقررة العيون فيها ومشاهدة أحوالها التى تسر الناظرين ، ف فيها ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ثم ذكر سبحانه ما يدل على مقدار أمنهم فيها وتنعمهم بنعيمها فقال :
 (متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) أى يدعون فيها بألوان
 كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك ، وإنما خص الشراب
 والفاكهة من بين ما ينعم به فيها ، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والأشربة ؛ فالنفس
 إليها أشوق ، وفي ذكرها أرغب ، كما أن فى ذلك إيماء إلى أن مطاعهم لمحض
 التفكه والتلذذ دون التغذية لأنه إنما يكون لتحصيل بدل المتحلل ، ولا تحلل فيها .

وبعد أن وصف المسكن والمأكل والمشروب وصف الأزواج فقال :
 (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) أى وعندهم نساء ذوات خفر قصرن
 طرفهن على أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ، وهن متساويات فى السن
 والجمال يحب بعضهن بعضا ، وفى ذلك راحة عظيمة للأزواج ، إذ فى تباغض الضرائر
 النصب والتعب والهم الكثير للزوج ولهن .

(هذا ما توعدون ليوم الحساب) أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هو
 ما وعد الله به عباده المتقين ، يصيرون إليه بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم .

ثم أخبر بأن نعيم الجنة دائم لا يزول ولا ينقطع فقال :
 (إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) أى إن هذا النعيم وتلك الكرامة — لعطاء
 دائم غير مجذوذ ولا منقطع .

ونحو الآية قوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ » وقوله : « عَطَاءٌ
 غَيْرَ مُجْدُوذٍ » أى مقطوع ، وقوله : « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى منقطع . وقوله :
 « أَكُلُوا دَائِمًا وَظِلُّهَا » .

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)
 هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا

فَوَجَّ مُقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَامَرَحِبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ
 لَامَرَحِبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ
 لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَنْزَى رِجَالًا كُنَّا
 نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَخَذْنَاَهُمْ سِجْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣)
 إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) .

شرح المفردات

الطاغين : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله ، يصلونها : أى
 يدخلونها ويقاسون حرها ، والمهاد : كالفرش لفظاً ومعنى ، والحميم : الماء الشديد
 الحرارة ، والفساق : شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار ، يقال غسقت العين :
 أى سال دمعها ، من شكله : أى من مثل المذوق فى الشدة والفظاعة ، أزواج : أى
 أجناس ، فوج : أى جمع كثير من أتباعكم فى الضلال ، والاقتحام : ركوب الشدة
 والدخول فيها ، لامرحبا بهم قال أبو عبيدة : العرب تقول لامرحبا بك : أى لارحبت
 عليك الأرض ولا اتسعت ، من الأشرار : أى الأراذل الذين لاخير فيهم ، يريدون
 بذلك المؤمنين ، زاغت عنهم : أى مالت عنهم ، والتخاصم : محاصمة بعضهم بعضا
 ومدافعة كل منهم الآخر .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه ثواب المتقين — أردفه بوصف عقاب الطاغين ، ليكون
 ذلك متممًا له ، فأتى الوعيد عقب الوعد ، والترهيب إثر الترغيب ، فيكون المرء بين
 رجاء فى الثواب وخوف من العقاب ، فيزداد فى الطاعة وينأى عن المعصية ،

وتلك وسيلة التهذيب والتأديب التي ترقى بها النفوس إلى سبيل الكمال في دنياها وآخرتها .

الإيضاح

(هذا) أى هذا الذى تقدم ما يكون جزاء للمؤمنين كفاء ما قدموا من أعمال صالحة .

(وإن للطاغين لشر مآب) أى وإن للكافرين الخارجين عن طاعة الله المكذبين لرسله سوء المنقلب وشر العاقبة ، ثم فسر ذلك بقوله :

(جهنم يصلونها فبئس المهاد) أى فهم يدخلون جهنم ويقاسون شديد حرها ، فبئس مهادا وفراشاهى ؛ ونحو الآية قوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » . ثم أمرهم أمرتهم وسخرية بذوق هذا العذاب فقال : (هذا فليذوقوه) أى العذاب هذا ، فليذوقوه .

ثم فصل أنواعه وبين ألوانه فقال :

(حميم وغساق) أى لهم فيها ماء حار يشوى الوجوه ، وماء بارد لا يستطيع شربه لبرودته ، قال الحسن رضى الله عنه : الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى ، إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا فى قوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أُنْيُنٍ » وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة .

ثم زاد فى التهديد وبالغ فى الوعيد فقال :

(وآخر من شكله أزواج) أى ليس الأمر مقصورا على هذا فحسب ، بل لهم فيها أشباه وأمثال من مثله فطاعة وشدة كالزقوم والصعود والسموم .

وبعد أن وصف مساكنهم ومشاربهم حكى ما يتناجون به ويقولوه بعضهم لبعض . (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم) أى هم يتلاعنون ويتكاذبون ، فتقول

الطائفة التي تدخل قبل الأخرى حين تقبل التي بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كثير داخل معكم فلا مرحبا بهم .

قال ابن عباس في تفسير الآية : إن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع تقول الخزنة للقادة: هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحبا بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم ، قال النابغة :

لامرحباً بغدٍ ولا أهلاً به إن كان تفريقُ الأحبة في غدٍ

ثم علل استيجاب الدعاء عليهم بقوله :

(إنهم صالوا النار) أي إنهم ذائقو حر النار مثلكم .

وهذا كلام من المتبوعين والرؤساء الذين أغووه وأدخلوهم في الكفر ، وحينئذ يردّ عليهم الداخول من الأتباع ويقولون لهم :

(بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار) أي قال الأتباع وهم الفوج المفتحم للنار لأولئك الرؤساء : بل أنتم أحق منا بما قلتم (لا مرحبا بكم) فإنكم أغويتونا ودعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، وبئس النار المنزل والمستقر .

وهذا كلام يراد به التشفي منهم ، لأنه مشترك بينهم .

ونحو الآية قوله : « كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا » .

ثم ذكر مقالة أخرى للأتباع ذمّا لهم أيضا فقال :

(قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) أي قال الأتباع دعاء على رؤساء الضلال : ربنا آت من قدم لنا هذا العذاب - عذابا مضاعفا في النار ، عذابا للضلال وعذابا للإضلال كما ورد في الحديث « من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

ونحو الآية قوله : « رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ » وقوله :

« رَبَّنَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرَا » .

وبعد أن ذكر حديثهم عن أخبارهم في الدنيا حكى حديثهم عن أعدائهم فيها فقال :
(وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدّهم من الأشرار؟) أى قال المشركون بعضهم
لبعض على سبيل التعجب والتعسر إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم في النار : ما بالنا
لا نرى رجالا كنا نعدّهم في الدنيا أشرارا لا خير فيهم ؟ .

قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول أبو جهل :
أين بلال ، أين صُهَيْب ، أين عمار ، أولئك في الفردوس . وأعجابا لأبي جهل !
مسكين ، أسلم ابنه عكرمة وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو . قال :
ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا وموضع رجلٍ منه أسودٌ مُظْلِمٌ
ثم سألوا عن السبب في عدم رؤيتهم فقالوا :

(أَتَخَذْنَاهُمْ سَخْرِيَا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ؟) أى لأجل أنا قد اتخذناهم سَخْرِيَا
ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟ .
وفي هذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على استسغارهم منهم في الدنيا .

والخلاصة — إن الكفار حين دخلوا النار ونظروا في جوانبها لم يروا المؤمنين
الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا فتناجوا وقالوا : ما بالنا لا نرى الذين كنا نتخذهم
في الدنيا سَخْرِيَا ؟ ألم يدخلوا النار معنا ، أم دخلوها ولكن زَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُنَا ؟
ثم بين أن هذا التناجى سيكون يوم القيامة وأنه حق لامية فيه فقال :

(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌ تَخَاصُمَ أَهْلِ النَّارِ) أى إن هذا الذى حدثناك عنه أيها الرسول
من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض ، ولعن بعضهم بعضا — حق لامية فيه .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧)

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْتُمْ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أول السورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم دعا إلى التوحيد وأثبت أنه نبي ، ودعا إلى الحشر والنشر فقابلوه بالسفاهة وقالوا إنه ساحر كذاب ، ثم صبره على ذلك وقص عليه من قصص الأنبياء قبله ما يكون سلوة له فى الصبر على الأذى ، ثم أردف ذلك بذكر ثواب أهل الجنة وعذاب أهل النار — عاد هنا إلى تقرير هذه المطالب التى ذكرها أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث .

الإيضاح

(قل إنما أنا منذر) أى قل أيها الرسول لمشركى مكة : إنما أنا نذير مرسل من ربى لأحذركم مخالفة أوامره حتى لا يحل بكم من العقاب مثل ما حل بالأمم قبلكم كعاد وثمود ، ولست بالساحر ولا الكذاب ، ولا بالمسيطر الجبار على نحو ما جاء فى قوله : « لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » وقوله : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . قَدْ كَرَّ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَيْدٍ » .

وبعد أن ذكر وظيفة الرسول ذكر ما يبلغه للناس فقال :

(وما من إله إلا الله الواحد القهار. رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار) أى إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهو الذى قهر كل شئ وغلبه بعزته وجبروته ، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ ، ويفقر الذنوب لمن يشاء من عباده إذا تاب ، جلّت أو حقرت .

ثم توعدهم على مخالفته وترك العمل به وأمر رسوله أن يحل لهم حقيقة وظيفته ، ليعرّوا عن غيهم ويشوبوا إلى رشدهم فقال :

(قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون) أى قل لهم : إن ما أنبأكم به من كونى رسولا منذرا ، ومن أن الله واحد لا شريك له — خبر عظيم الفائدة لكم ، فهو ينقذكم مما أنتم فيه من الضلال ، لكنكم معرضون عنه ، لا تفكرون فيه ، لتماذيكم فى الغفلة . وفى هذا تنبيه إلى ما هم فيه من الخطأ ، علمهم يرجعون عن غيهم .

ثم ذكر من الأدلة ما يرشد إلى نبوته فقال :

(ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون) أى ولولا الوحي ما كنت أدرى باختلاف الملا الأعلى ، يعنى فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحااجة ربه فى تفضيله عليه ، وهو ما ذكره بعد .

ثم أكد نبوته بقوله :

(إن يوحى إلى إلا أنا أنأ نذير مبين) أى ما يوحى إلى إلا للإنذار ، لا لأن أكون جبارا ولا مسيطرا .

قصص آدم عليه السلام

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّ خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَتَّعَمُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠)

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوْيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَتَمِنَ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) .

شرح المفردات

ففعوا له : أى اسجدوا له ، مامنك : أى ماصرفك وصدك ، واليد القدرة قال :

تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفَرَاءَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ يَدَانِ
من العالين : أى المستحقين للترفع عن طاعة الله المتعالين عن ذلك ، رجم : أى مرجوم ومطرود من كل خير ، لعنتى : أى طردى ، أنظرنى : أى أملهنى ، من المنظرين : أى المهلين ، لأغوينهم : أى لأضلنهم ، الخلصين : أى الذين أخلصتهم للعبادة .

المعنى الجملى

قد سلف ذكر هذه القصة فى سورة : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والإسراء ، والكهف ، كما ذكرت هنا ؛ والعبرة منها النهى عن الحسد والكبر ، لأن إبليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما ، والكفار إنما نازعوا محمدا صلى الله عليه وسلم بسببهما ، وكرر ذكرها ليكون زاجرا لهم عنهما ؛ والمواعظ والنصائح باب من أبواب التكرير للمبالغة فى النصيح والإرشاد .

الإيضاح

خلاصة هذه القصة — إن الله سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام أنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، وأمرهم بالسجود له متى فرغ من

خلقه وتسويته ، إجلالا وإعظاما له ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا بل كان من الجن فخانه طبعه ، فاستنكف عن السجود له وخاصم ربه وادعى أنه خير من آدم ، لأنه مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد خالف بذلك أمر ربه ، فكفر به فأبعده وطرده من باب رحمته وحضرة قدسه مذموما مدحورا ، فسأل النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرّد وطفى وقال : « فَبِعِزَّتِكَ لَا غَوِيَنَّهُمْ أَجَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » فقال تعالى : « فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَا مُلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجَعِينَ » .

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنَّهُ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) .

شرح المفردات

من المتكلفين : أى المدعين معرفة ما ليس عندهم ، نبأه : أى ما أنبأ به من وعد ووعيد ، بعد حين : أى بعد الموت .

الإيضاح

(قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) أى قل يا أيها الرسول لمشركي قومك : ما أسألكم على تبليغ ما يوحى إلىّ أجرا لا قليلا ولا كثيرا ، وما عرفتموني أتكلف ما ليس عندى حتى أتبعل النبوة وأتقول القرآن .

أخرج ابن عدى عن أبي برزة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ قُلْنَا بلى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ هُمُ الرَّحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، قَالَ :

ألا أنبئكم بأهل النار؟ قلنا بلى ، قال هم الآيسون القانطون الكذابون المتكلمون .
 وفي الصحيحين أن ابن مسعود قال : « أيها الناس من علم منكم علما فليقل به ،
 ومن لم يعلم فليقل : الله تعالى أعلم ، قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قُلْ
 مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) » .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ما هذا القرآن إلا عظة للثقلين كافة ، وكل
 ذى عقل سليم ، وطبع مستقيم ، يشهد بصحته وبعده عن البطلان والفساد .

ثم ختم السورة بتهديدهم لعلهم يرعون عن غيهم فقال :
 (ولتعلمن نبأه بعد حين) أى إنكم إن أصرتم على ما أنتم عليه من الجهل
 وأيتم إلا تقليد الآباء والأجداد فستعلمون حين الموت إن كنتم مصيبين في إعراضكم
 أو غططين .

وكان الحسن البصرى يقول : يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .
 جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا يعرضون عن اتباع
 الذكر وما فيه من صلاح للناس في الدنيا والآخرة .

ما تضمنته هذه السورة من العبر والمواعظ

- (١) صلف المشركين وإعراضهم عن الحق ، مع ضرب المثل لهم بالأم الماضية
 التى حادت عن الحق فهلكت .
- (٢) إنكارهم للوحدانية .
- (٣) إنكارهم لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام .
- (٤) إنكارهم للبعث والحساب .
- (٥) قصص داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم
 من النبيين عليهم السلام .

- (٦) وصف نعيم أهل الجنة .
- (٧) وصف عذاب أهل النار ، وتلاعن بعضهم بعضا ، وسؤالهم عن المؤمنين لم يروهم في النار ؟
- (٨) قصص آدم عليه السلام .
- (٩) قسم إبليس — لِيُغْوِيَنَّ بنى آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين .
- (١٠) أمر الله نبيه أن يقول للمشركين : ما أطلب منكم أجرا على تبليغ رسالتي ولا أنا بالذي يدعى علم شيء هو لا يعرفه .
- (١١) إن القرآن أنزل للثقلين كافة .
- (١٢) إن المشركين بعد موتهم يعلمون حقيقة أمره .

سورة الزمر

هي مكية إلا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فدنديات ، وآياتها خمس وسبعون نزلت بعد سبأ .

ووجه اتصالها بما قبلها :

- (١) إنه وصف القرآن في آخر سورة ص بقوله : « إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » ووصفه هنا بقوله : « تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ » .
 (٢) إنه ذكر في ص أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله — إلى نحو ذلك من وجوه للربط تظهر بالتأمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَنْبُدُّهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) .

الإيضاح

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) أى هذا الكتاب العظيم منزل من عنده تعالى ، فهو الحق الذى لا مرية فيه كما جاء فى آية : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » وجاء في قوله : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ . تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

و بعد أن بين شأن المنزل وأنه من عند الله — ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل فقال :

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن أيها الرسول أمرا بالحق والعدل الواجب اتباعهما والعمل بهما .

ثم أمر رسوله بعبادته والإخلاص له فقال :

(فاعبد الله مخلصا له الدين) أى فاعبده تعالى محمضا له الدين من شوائب الشرك والرياء على حسب ما أنزل الله في تضعيف كتابه ، وأعلم الناس أن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وأنه ليس له ند ولا شريك .

ثم أكد هذا الأمر بقوله :

(ألا لله الدين الخالص) أى ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شركة لأحد معه فيها ، لأن كل ما دونه ماله ، وعلى المملوك طاعة ماله ، وفي حديث الحسن عن أبي هريرة « أن رجلا قال يا رسول الله : إني أتصدق بالشئ وأصنع الشئ أريد به وجه الله وثناء الناس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ، لا يقبل الله شيئا شورك فيه ، ثم تلا : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) » .

و بعد أن أبان أن رأس العبادة الإخلاص لله — أعقب ذلك بذكر طريق المشركين فقال :

(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة ويشفعوا لنا عنده في حاجتنا .

ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكوكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز إليها ، وقالوا إن الإله الأعظم أجل من أن يعبد به البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهي تعبد الإله الأعظم .

وهذه شبهة تمسك بها المشركون في قديم الدهر وحديثه ، وجاءت الرسل مفندة لها ماحية لها من الأذهان العالقة بها ، موجهة العقول إلى أفراد الله وحده بالعبادة كما قال : « وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » . قال قتادة : كانوا إذا قيل لهم من ربكم ومن خالقكم ومن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء ؟ قالوا الله . فيقال لهم فلم تعبدونهم ؟ قالوا ليقرّبونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده ، فرد الله عليهم بقوله : « فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ » .

ثم هددهم وبين لهم عاقبة ما يفعلون فقال :

(إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) أى إن الله يحكم بينهم وبين خصومهم وهم الحقون فيما اختلفوا فيه من التوحيد والإشراك يوم القيامة ، ويجازى كلا بما هو أهل له ، فيدخل المخلصين الموحدين الجنة ، ويدخل المشركين النار .

(إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) أى إن الله لا يرشد إلى الحق ولا يوفق إليه من هو كاذب مفتر عليه ، بزعمه أن له ولدا وأن له ندا وأن الأوثان تشفع لديه إلى غير ذلك من الترهات والأباطيل التى لا يقبلها العقل ولا تجد لها مستندا من نقل . ثم فصل ما كذبوا فيه فقال :

(لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء) أى لو أراد الله أن يتخذ ولدا - ولا ينبغي له ذلك - لما رضى إلا بأكمل الأولاد وهم الأنبياء ، فكيف نسبهم إليه البنات ؟ .

ثم نزه سبحانه نفسه عن أن يكون له ولد فقال :
 (سبحانه هو الله الواحد القهار) أى تقدس الله أن يكون له ولد ، فإنه هو
 الواحد الأحد الفرد الصمد ، وكل ما سواه مفتقر إليه ، وهو الغنى عما سواه ، قهر
 الأشياء فدانت له ، وتسلط على المخلوقات بقدرته فذلت له ، تعالى عما يقول الظالمون
 علوا كبيرا .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
 النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ
 الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
 وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
 خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَىٰ تُصْرَفُونَ (٦) .

شرح المفردات

التكوير فى الأصل : اللف والى من كابر العامة على رأسه وكورها ؛ والمراد
 يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما
 منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة ، والظلمات الثلاث : ظلمة البطن وظلمة
 الرحم وظلمة المشيمة ، تصرفون : أى يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه منزّه عن الولد بكونه إلها قهارا ، وأن كل المخلوقات
 فى قبضته وسلطانه — أردف ذلك بما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها

فى الأكوآن؁ وفى خلق الإنسان؁ فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذللهما وجعلهما يجران فى ذلك الملكوت الذى لا يعلم مداه إلا هو؁ كما خلق الإنسان الأول وجعل له زوجا من جنسه؁ وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وأنثى فكانت نواة التناسل فى هذه الأنواع؁ فهل بعد هذا يجد العاقل مقذلا عن الاعتراف بربوبيته؁ وعظيم قدرته .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق) أى خلق هذا العالم العلوى على ما فيه من بديع الصنع من شمس وأقمار؁ تكوّن الليل والنهار؁ والعالم السفلى المشتمل على المواليد الثلاثة من إنسان وحيوان ونبات وجماد؁ وسخر كل ما فيه ظاهرا وباطنا لانتفاع الإنسان فى سبل معاشه إذا استعمل عقله واستخدم فكره فى استنباط مرافقه — خلقهما على أكمل وجه؁ وأبدع نظام؁ قائمين على الحق والصواب؁ والحكم والمصالح .

وبعد أن أبان أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

(يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل) أى يُغشى كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس؁ أو يجعلهما فى تتابعهما أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض؁ ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب حولها طوايا الليل؁ والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طوايا النهار؛ فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان أكوار العمامة؁ ولتلفان متتابعين حولها .

وفى هذا إيماء إلى كروية الأرض أولا؁ وإلى دورانها حول نفسها ثانيا؁ فتكوّر الأرض ظاهر الآية؁ ودورانها أتى تابعا بالرمز والإشارة .

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وجعل الشمس والقمر

وهما وسيلتا الليل والنهار منقادين له (وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما) يجريان لمنتهى دورتهما ، ومنقطع حركتهما ، وهو يوم القيامة ، (يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكُتُبِ) .

ثم ذيل الكلام بالجملة الآتية ترغيبا في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص ، والتحذير من الكفر والمعاصي ، فقال :

(ألا هو العزيز الغفار) أى ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال ، وأنعم على خلقه بهذه النعم — هو القادر على الإتيان من عاداه ، الغفار لذنوب عباده التائبين . ولا يخفى ما فى هذا من الدلالة على كمال قدرته ، وكال رحمته ؛ فهو القهار ذو القوة المتين ، الغفار لذنوب التائبين .

وبعد أن ذكر الدلائل التى بشها فى العالم العلوى — أردفها بذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى ، وبدأها بخلق الإنسان ، لأنه أعجب ما فيه ، لما فيه من العقل وقبوله الأمانة الإلهية ولله در من قال :

وترغم ألك جرّم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) أى خلقكم على اختلاف السنتنكم وألوانكم — من نفس واحدة وهى آدم ، ثم جعل من جنسها زوجها وهى حواء ، ثم نثى بخلق الحيوان فقال :

(وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أى وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ» أى ذكر وأنثى لكل منها . ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر من الأناسى والأنعام فقال :

(يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق) أى يبتدئ خلقكم أيها الناس فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، فيكون أحدم أولا نطفة ، ثم يكون علقة ،

ثم يكون مضغة ، ثم يكون لحا وعظما وعصبا ، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(فى ظلمات ثلاث) أى فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد وحفظا له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل فى كتابه [الإسلام والطب الحديث] : يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والخربون ، والغشاء اللفائى ، وهى لا تظهر إلا بالشرىح الدقيق ؛ وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة اه .

وبعد أن ذكر هذه الأفعال العجيبة ذكر موجدتها ومنشئها فقال :
(ذلكم الله ربكم) أى ذلكم العظيم الشأن الذى عددت أفعاله — هو الله مريكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعدها ، المستحق لتخصيص العبادة به سبحانه .
(له الملك) على الإطلاق فى الدنيا والآخرة .

(لا إله إلا هو) أى لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له .
(فأنى تصرفون ؟) أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها ، وانتفاء ما يصرف عنها — إلى عبادة غيره سبحانه من غير داع إليهما مع كثرة ما يصرف عنها .

والخلاصة — كيف تعبدون معه سواء ؟ أين ذهبت عقولكم ؟ وكيف ضاعت أحلامكم ؟

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسَىٰ

مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ آتِدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ
بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) .

شرح المفردات

منيبا : أى راجعا إليه مطيعا له ، خوّله ملكه ؛ وأنشد أبو عمرو بن العلاء لزهير
ابن أبي سلمى :

هنالك إنْ يُسْتَحْوُوا المال يُخْوُوا وإنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإنْ يَسْرُوا يُقْلُوا

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام
لادليل لهم على عبادتها ، وكأن عقولهم قد ذهبت حين عبدوها — أعقب ذلك ببيان
أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات ، فهو لا يريد بعبادته جر منفعة ولا دفع مضرة ،
ولكنه لا يرضى الكفر لعباده ، بل يرضى لهم الشكر ، وأن كل نفس مطالبة
بما عملت ، وبعده تزد إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه
بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون ، فإذا أصابهم الضر رجعوا في طلب دفعه إلى الله ،
وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا
أنه لا يدفع الضر سواه — أن يعبدوه في جميع الحالات ، ثم أمر رسوله أن يقول لهم
متهمكما موبخا تتمتعوا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .

الإيضاح

(إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) أى إن تكفروا به سبحانه مع مشاهدة ما يوجب
الإيمان والشكر فإن ذلك لا يضره شيئا ، فهو الغنى عن سائر المخلوقات كما قال تعالى
حكاية عن موسى : «إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ»

وجاء في صحيح مسلم « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » .

ثم ذكر ما يحبه سبحانه وما يكرهه فقال :

(ولا يرضى لعباده الكفر) أى لا يحبه ولا يأمر به ، لأنه مانع من ارتقاء النفوس البشرية بجعلها ذليلة خاضعة للأرباب المتعددة والمعبودات الحقيرة من الخشب والنصب ومن يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

(وإن تشكروا يرضه لكم) لأنه على مقتضى السنن القويم ، والصراط العادل المستقيم كما قال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ولا يضيره عمل سواه فقال :

(ولا ترزقوا وزر أخرى) أى ولا تحمل أى نفس أوزار نفس أخرى ، بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كانت أو شرا .

ثم بين أن جزاء المرء فى الآخرة على وفق ما عمل فقال :

(ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فاحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم فى الدنيا ما لا يرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالمسيرة عليه سبحانه فقال :

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى يخص جميع أعمالكم حتى ما تضره صدوركم مما لا تدركه أعيانكم ، فكيف بما رآته العيون وأدركته الأبصار .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان

يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) أى وإذا أصاب الكافر بلاء في جسده أو شدة في معيشتة أو خوف على حياته — استغاث بربه الذى خلقه ورغب إليه في كشف ما نزل به ، تائباً إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به وإشراك الآلهة والأوثان في عبادته ، ثم إذا منحه نعمة منه فأزال ما به من ضرر ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء — ترك دعاءه الذى كان يدعو من قبل أن يكشف ما كان به من ضرر ، فجعل لله شركاء وأضل الناس ومنعهم من توحيدهم والإقرار به والدخول في الإسلام .

ثم أوعدده وهدده على ما فعل فقال :

(قل تتمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) أى قل أيها الرسول لمن فعل ذلك : تتمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها، منصرف عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمناً قليلاً إلى أن تستوفى أجلك ، وتأتيتك منيتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار الخالدين فيها أبداً .

أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩) .

شرح المفردات

القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، آتاء الليل : ساعاته واحداً آن ، يحذر الآخرة : أى يخشى عذابها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان صفات المشركين الضالين، وذكر تقلبهم واضطرابهم فى العبادة ، إذ يرجعون إلى الله فى وقت الشدة ويعودون إلى الأوثان حين الرخاء — أردفه بذكر

أحوال المؤمنين القانتين الذين لا يعتمدون إلا على ربهم ، ولا ينيبون إلا إليه ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه .

الإيضاح

(أم من هو قانت آتاء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)
 أى أنت أيها المشرك أحسن حالا وما لا أم من هو قائم بأداء الطاعات ، ودائب على وظائف العبادات ، فى ساعات الليل التى تكون فيها العبادة أشق على النفوس ، وأبعد من الرياء ، فتكون أقرب إلى القبول ، وهو فى حال عبادته خائف راج ؟
 لاشك أن الجواب لا يحتاج إلى بيان .

والخلاصة — أمن هو مطيع كمن هو عاص ؟ إنهما لا يستويان .

ثم أكد نفي التساوى ونبه إلى فضيلة العلم وشرف العمل به فقال :

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟) أى قل أيها الرسول لقومك هل يستوى الذين يعلمون ما لهم فى طاعة ربهم من الثواب ، وما عليهم فى معصيتهم إياه من عقاب ، والذين لا يعلمون ذلك ، فهم يخبطون خبط عشواء لا يرجون بحسن أعمالهم خيرا ، ولا يخافون من سيئها شرا .

وجاء هذا الكلام بأسلوب الاستفهام للدلالة على أن الأولين بلغوا أعلى معارج الخير ، وأن الآخرين درجوا فى دركات الشر ، ولا يخفى ذلك على منصف ولا مكابر .

ثم بين أن ما سلف إنما يفهمه كل ذى لب ، فأمثال هؤلاء على قلوبهم غشاوة لا يفقهون موعظة ، ولا تنفع فيهم التذكرة فقال :

(إنما يتذكر أولو الألباب) أى إنما يعتبر بحجج الله ويتعظ بها ويتدبرها أهل العقول والحجا ، لا أهل الجهل والغفلة .

والخلاصة — إنه إنما يعلم الفرق بين هذا أو ذاك من له لب وعقل يتدبر به .

قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا
 حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)
 قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
 عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ
 هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ
 ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) .

المعنى المجمل

بعد أن نفى المساواة بين من يعلم ومن لا يعلم — أردفه بأمر رسوله أن ينصح
 المؤمنين بمجمل نصائح :

(١) تقوى الله وطاعته لما في ذلك من جزيل الفوائد ، فإذا تعذرت طاعته
 في بلد تحولوا عنه إلى بلد يتمكنون فيه من الاشتغال بالعبادة والطاعة كما فعل كثير
 من الأنبياء ، ولهم كفاء ذلك أجر بغير حساب ، فلا يقدر بمكيال ولا ميزان .

(٢) إنه أمر بعبادة الله وحده مخلصا له الدين ، وقد قال كفار قريش للنبي
 صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به ؟ ألا تنظر إلى ملة أبيك
 إبراهيم وجدك ، وسادات قومك يعبدون اللات والعزى ؟ فأنزل الله الآية وأمره أن
 يكون أول المسلمين ، وفي ذلك تنبيه إلى كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة .

(٣) إنه أمر أن يقول لهم : إني أخاف عذاب يوم القيامة إن عصيته ، وفي
 ذلك إيحاء إلى زجر غيره عن المعاصي .

- (٤) إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذي يخسر نفسه ويخسر أهله ، لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده .
- (٥) وصف لهم النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التي يخوف بها عباده .

الإيضاح

(قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر سبحانه رسوله أن يعظ المؤمنين ويحملهم على الطاعة والتقوى باجتناب معاصيه واتباع أوامره .
ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) أى لمن أحسن في هذه الدار ، وعمل صالح الأعمال ، وزكى نفسه فيها — حسنة من صحة وعافية ونجاح في الأعمال التي يزاوها كفاء ما يتحلى به من تمسك بأداب الدين واتباع فضائله ، وحسنة في الآخرة فيتمتع بجنات النعيم ورضوان الله عنه « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

ثم رغبهم في الهجرة من مكة إلى المدينة وصبرهم على مفارقة الأوطان فقال :
(وأرض الله واسعة) أى إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفر على الإحسان والتقوى .
وصرف الهم إلى العبادة في البلد الذي أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين فقد فعل كثير منهم ذلك .

ثم ذكر ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال :
(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) أى ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لا يقدر قدره ، كما وفى من قبلهم أجورهم على هذه الشاكلة . وعن الحسين ابن على رضى الله عنهما قال : سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
« أَدَّ الفرائض تكن من أعبد الناس ، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس ، يا بني

إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصبُّ عليهم الأجر صبًّا ثم نلا : (إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) قال النحاس : من صبر على المعاصي يقال صابر ، ومن صبر على المصيبة يقال صابر على كذا .

ثم ذكر ما أمر به نبيه من الإخلاص في الطاعة فقال :
(قل إنما أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى قل أيها الرسول لمشركي قومك : إن الله أمرني أن أعبدَه مفردا له الطاعة دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد .

وفي هذا نعى لهم على تماديهم في عبادة الأوثان ، والكلام عليه من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جاره) .

(وأمرت لأن أكون أول المسلمين) أى وأمرت أن أكون أول المسلمين وسابقم في إخلاص التوحيد لله ، وإخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

(قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أى قل لهم : إني أخاف إن عصيت ربي بترك الإخلاص له أو إفراذه بالربوبية — عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام .

وفي هذا من التعريض بهم ما لا يخفى .

(قل الله أعبد مخلصا له ديني . فاعبدوا ما شئتم من دونه) أى قل لهم : الله أعبد لا غيره لا استقلال ولا اشتراك ، مخلصا له عبادتي مبتعدا من الشرك والرياء ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام ، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم .

وفي هذا تهديد ووعيد شديد :

(قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أى قل لهم

أيها الرسول : إن الخسران الذي لا خسران بعده — هو خسران النفس وإضاعتها بالضلال ، وخسران الأتباع الذين أضلّوهم وأوقعوهم في العذاب السرمدي يوم القيامة إذ أوقعوهم في هلكة ما بعدها هلكة .

(ألا ذلك هو الخسران المبين) أي هذا هو الخسران المبين الظاهر لسكّال هوله ، وفظاعة شأنه .

ثم فصل ذلك الخسران وبينه بعد إيهامه تهويلا وتعظيما لأمره فقال :
(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) أي لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ »
وقوله : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » .

(ذلك يخوف الله به عباده) أي إنما يقص عليكم ربكم خبر ما سيكون لا محالة ، يزدجر عباده عن المحارم والآثام .

بعد هذا أمرهم بتقواه وحذرهم من عصيانه فقال :

(يا عباد فاتقون) أي يا عبادى بالغوا في الخوف والحذر والتقوى ، ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي ، وهذه منة منه تعالى منطوية على نهاية اللطف والرحمة .

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ
أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ

فَوْقَهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ
الْمِيعَادَ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وعيده لعبدة الأصنام — أردف ذلك وعد من اجتنبوا
عبادتها وبعثوا عن الشرك ، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال
الترهيب والترغيب .

الإيضاح

(والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأناثوا إلى الله لهم البشرى) الطاغوت:
الشيطان، ويطلق على الواحد والجمع ، وسميت عبادة الأوثان عبادة للشيطان ، إذ كان
الآمر بها والمزين لها .

أى والذين اجتنبوا عبادة الأصنام وأقبلوا إلى ربهم معرضين عما سواه — لهم
البشرى بالثواب العظيم من الله على السنة رساله حين الموت وحين يحشرون من
قبورهم للحساب .

ثم مدحهم بأنهم نقاد فى الدين يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل
والأفضل فقال :

(فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أى فبشر هؤلاء الذين
اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأناثوا إلى ربهم وسمعوا القول فاتبعوا أولاه بالقبول
وأرشده إلى الحق — بالنعيم المقيم فى جنات النعيم .

(أولئك الذين هداهم الله) أى هؤلاء هم الذين وفقهم الله للرشاد وإصابة
الصواب ، لا الذين يعرضون عن سماع الحق ، ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

(وأولئك هم أولو الأبواب) أى وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والنظر

المستقيمة ، التى لاتطيع الهوى ولا يغلبها الوهم ، فتختار خير الأمرين فى دينها ودنياها .
 روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى ثلاثة نفر : زيد بن عمرو وأبى ذر الغفارى وسلمان
 الفارسى ، كانوا فى الجاهلية يقولون « لا إله إلا الله » .

ثم بين أضداد المذكورين أولا وسجل عليهم الحرمان من الهداية فقال :
 (أفمن حق عليه كلمة العذاب ؟ أفأنت تنقذ من فى النار؟) أى أنت مالك شئون
 الناس ومصرف أمورهم ، فمن حقت عليه كلمة العذاب لعدم أهليته للكمال وتدسيته
 نفسه بولوغها فى الآثام والمعاصى — فأنت تنقذه من النار؟ — كلا ، ليس أمرهم إليك
 بل أمرهم إلى ربهم يجازيهم بحكمته وعدله .

ثم أعاد جزاء المتقين عناية بأمرهم بعد ذكر أضدادهم فقال :
 (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها
 الأنهار) أى لكن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، لهم فى الجنة
 غرف طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات تجري الأنهار خلال أشجارها .
 ثم أكد حصول ذلك لهم فقال :

(وعد الله لا يخلف الله الميعاد) أى وعد الله هؤلاء المتقين بذلك ، ووعد
 الحق ، فهو لا يخلف ما وعدهم ، بل يوفى بوعده .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ
 ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) .

شرح المفردات

فسلكه : أى فأدخله ، ينابيع : أى عيوناً ومجارى ، ألوانه : أى أنواعه وأصنافه
 يهيج : أى يحف ، حطاما : أى فتاتا متكسرا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف جلت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها — أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضيها وشيكا، تحذيرا من الاغترار بزهرتها ، والركون إلى لذتها ، فتلّ حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع ، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتا متكسرا ، فما أسرع زواله ، وأيسر تقضيه !

الإيضاح

إنك أيها الرسول لتشهد الماء وقد نزل من السماء فجرى عيوننا في الأرض فسقيت به أنواع مختلفة من النبات من بُرٍّ إلى شعير إلى أرز إلى نحو ذلك ثم نضجت وجفت وصارت مصفرة بعد خضرة ونضرة ثم صارت فتاتا متكسرة ، فما أشبه حال الدنيا بحالها فهي سريعة التقضى وشبكة الزوال ، فليعتبر بذلك أولو الحجا ، وليعلموا أن الدنيا كسوق قام ثم انفض ، ولا يغتروا ببهجتها ولا يفتنوا بزخرفها .

ونحو الآية قوله : « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » .

أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ
لِلْقَاسِمَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢) اللَّهُ تَزَلَّ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) أَفَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ
 الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤)
 كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥)
 فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا غَيْرِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

شرح الصدر للإسلام : الفرح به والطمانينة إليه ، والنور : البصيرة والهدى ،
 والقسوة : جمود وصلابة في القلب ؛ يقال قلب قاسٍ : أى لا يرق ولا يلين ، أحسن
 الحديث : هو القرآن ، متشابهها : أى يشبه بعضه بعضاً في الحسن والأحكام ، مثانى :
 واحدها مثنى من التثنية : أى التكرير ، تقشعر : أى تضطرب وتتحرك وتشمئز ، تلين
 أى تسكن وتطمئن ، الخزى : الذل والهوان ، يتذكرون : أى يتعظون ، غير
 ذى عوج : أى لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ، قال :

وقد أمانك يقينٌ غير ذى عوجٍ من الإله وقولٌ غيرٌ مكذوبٍ

المعنى الجملى

بعد أن بالغ في ذكر ما يدل على وجوب الإقبال على طاعته سبحانه والإعراض عن
 الدنيا -- أردف ذلك ببيان أنه لا ينتفع بهذا إلا من شرح الله صدره ونور قلبه
 وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن
 من يتقى بيديه الخواف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لا يفكر

في مآل أمره ، وعاقبة عمله ، وبعدئذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا في الأمم ،
فلقد كذب كثير قبلهم فاتاهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون ، فأصيبوا في الدنيا
بالذل والصغار والقتل والخسف ، وللعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا ، ثم ذكر أن
القرآن قد ضرب الأمثال للناس لعلهم يرجعون ويتذكرون ، بلسان عربي مبين
لعلهم يتقون .

الإيضاح

(أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟) أى أفمن دخل النور
قلبه فانشرح للإسلام لما رأى فيه من البدائع والعجائب المهيبة للحكمة ، المهددة لقبول
الحق والموصلة إلى الرشاد — كمن طبع على قلبه لغفاته وجهالته ؟ وقد روى أن
علامة ذلك الانسراح الإجابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد
للموت قبل حلول الموت .

والخلاصة — هل يستوى من أنار الله بصيرته ومن هو قاسى القلب بعيد
من الحق ؟

ونحو الآية قوله : « أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ
فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » .

قال ابن عباس : من شرح الله صدره للإسلام أبو بكر الصديق رضى الله عنه ،
وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : « تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية
فقلنا يا نبي الله كيف انشرح صدره ؟ قال إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح ،
قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار
الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت » . وأخرج الترمذى عن ابن عمر « أن رجلا
قال يا رسول الله : أى المؤمنين أكيس ؟ قال أ كثرهم ذكر الموت ، وأحسنهم له
استعدادا ، وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع ، فقالوا ما آية ذلك

يا نبي الله ؟ قال الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

ثم ذكر ما يدل على المحذوف الذي قدر في الجملة السالفة فقال :

(فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى فالويل أشد الويل لمن قست قلوبهم من أجل ذكر الله الذى من حقه أن تلين منه القلوب ، فهم إذا ذكر الله عندهم وذكرت دلائل قدرته وبدائع صنعه اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قسوة .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : اطلبوا الخواص من السمحاء فإنى جمعت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإنى جعلت فيهم سخطى » .

ثم بين حالهم فقال :

(أولئك فى ضلال مبين) أى أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم فى غواية ظاهرة لكل أحد لا تحتاج إلى عناء فى تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .

وبعدئذ وصف القرآن الذى يشرح الصدر ويلين القلب فقال :

(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى الله أنزل أحسن الحديث قرآنا كريما يشبه بعضه بعضا فى الصدق والبيان والبوعظ والحكمة ، كما تشابه أجزاء الماء والهواء وأجزاء النبات والزهر ، تُنثنى وتردد قصصه وأنباؤه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، إذا تلئت منه آيات العذاب اقشعرت الجلود ، ووجلّت القلوب ، وإذا تلئت آيات

الرحمة والوعد لانت الجلود ، وسكنت القلوب ، واطمأنت النفوس . قال الزجاج :
إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله .

(ذلك هدى الله يهdy به من يشاء) أى ذلك الكتاب يهdy به الله من يشاء
ويوقفه للإيمان .

(ومن يضل الله فإله من هاد) أى ومن يخذله الله عن الإيمان بهذا القرآن
والتصديق به ، فإنه يُخرج من الضلالة ، ولا موقفٌ لسلوك طريق الحق . ثم ذكر
علة ما تقدم من تباین حال المهتدى والضالّ فقال :

(أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) أى أكل الناس سواء ؟ فمن شأنه
أن يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه العذاب الشديد السيئ يوم القيامة ، (لأن
يده التى كان يتقى بها المكاره فى الدنيا مغولة إلى عنقه) ، كمن هو آمن لا يعتريه
مكروه ، ولا يحتاج إلى اتقاء محذور مخوف .

ثم ذكر ما ينال الكفار والعاصين من الإهانة فى ذلك اليوم فقال :
(وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا
أنفسهم بالشرك والمعاصى — ذوقوا وبال ما كنتم فى الدنيا ، ودسيتم به أنفسكم حتى
أوقعتموها فى الهاوية ، النار الحامية .

ثم ذكر ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع
من العذاب الأخرى فقال :

(كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله
الخرزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى إن بعض الأمم
الماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بغتة من حيث لا تحتسب ولا يخطر لها بالبال ،
فلحقها النذل والصغار فى الحياة الدنيا ، فأصيبت تارة بالمسخ وأخرى بالخسف وثالثة
بالتقتل أو السب أو نحو ذلك من ضروب النكال والوبال ، وإن عذاب الآخرة لأنكى
عاقبة وأشد أثرًا لو علموا ذلك واعتبروا به .

ثم بين أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال والمواعظ عبرة لهم لو كانوا يعقلون فقال :

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون . قرآنًا عربيًا غير ذى عوج لعلمهم يتقون) أى ولقد مثلنا لهؤلاء المشركين بالله أمثال القرون الخالية تخويفًا لهم وتحذيرًا ، ليتعظوا ويزدجروا ويقلموا عمامهم عليه مقيمون من الكفر برهم ، بكلام عربى لا لبس فيه ولا اختلاف ، ليفهموا ما فيه من مواعظ ، ويعتبروا بما فيه من حكم ، فيتقوا ما حذرهم فيه من بأسه وخطوته ، وينيبوا إليه ويفردوه بالعبادة ، ويتبرءوا من الآلهة والأنداد .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) .

شرح المفردات

ضرب المثل : تشبيه حال عجيبة بأخرى وجعلها مثلاً لها ، متشاكسون : أى مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة أخلاقهم ، سلماً لرجل : أى خالفاً لسيد واحد ، والميت (بالتشديد) من لم يموت وسيموت ، والميت (بالتخفيف) من قد مات وفارقه الروح ، قال الخليل أنشد أبو عمرو :

وتسألنى نفسى مَيِّتٍ ومَيِّتٍ فدونك قد فسرْتُ إن كنتَ تعقلُ
فمن كان ذا روحٍ فذلك ميتٌ وما الميتُ إلا من إلى القبرِ يُحْمَلُ
تختصمون : أى تحتكمون للقضاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحكمة فى ضرب الأمثال للناس ، وهى أن تكون عظة وذكرة لهم لينتقوا ربهم ، ويرعوا عن غيهم وضلالهم — أردفه بذكرة مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها ، ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعا سيموتون ثم يعرضون على ربهم ، وهناك يستبين الحق والمبطل ، والضال والمهتدى ، فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم .

الإيضاح

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل، هل يستويان مثلا؟) أى ضرب الله مثلا لقومك وقال لهم : ماذا تقولون فى عبد مملوك قد امتلكه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ؛ فهم يتجادونه فى حاجهم وهو حائز فى أمره إذا هو أراضى أحدهم أغضب الباقين ، وإذا احتاج إليهم فى مهمّ رده كل منهم إلى الآخرين ، فهو فى عذاب دائم وتعب مقيم ، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصا وهو يعينه على مهماته ، ويقضى له سائر حاجاته ، فأى العبدین أحسن حالا وأحمد شأنًا؟ — الجواب لا يحتاج إلى بيان — هكذا حال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالاً حائرا لا يدري أىّ تلك الآلهة يعبد ؟ ولا على أيهم يعتمد ؟ ومن يطلب رزقه ؟ ومن يلتمس رفده ؟ أما من لم يثبت إلا إلهًا واحدا فهو قائم بما كلفه ، عارف ما يرضيه وما يسخطه — لا شك أن البون بين حالهما شاسع .

وقوله (هل يستويان مثلا) أى هل تستوى صفتاهما وحالاهما؟ .

(الحمد لله) أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أن لا إله إلا هو — ثبت أن الحمد لله لا لغيره .

(بل أكثرهم لا يعلمون) أى بل أكثر الناس لا يعلمون أن الحمد لله لا لغيره فيشركوا به سواء .

ولما لم يلتفتوا إلى الحق ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله ، وأنهم يحتصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز الحق من المبطل قال :

(إنك ميت وإنتهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) أى إنك ستموت وهم سيموتون ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتج أنت عليهم بأنك قد بآقت فكذبوا ، ويعتذرون هم بما لا طائل تحته ، وبما لا يدفع عنهم لوما ولا تقيعا ، ويقول التابعون للرؤساء : أطعناكم فأضالتمونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وآباؤنا الأولون .

عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو مال فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخارى .

وعن أبي هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المُفْلِسُ ؟ قالوا المُفْلِسُ فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المُفْلِسَ من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيُعْطَى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » أخرجه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت هذه الآية كننا نقول : ربنا واحد ، وديننا واحد ، ونبينا واحد ، فما هذه الحصومة ؟ فلما كان يوم صِفِّين ، وشد بعضنا على بعض بالسيف قلنا نعم هو هذا .

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ووفقنا لما فيه رضاك .

تم هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثلاث بقين من دى القعدة من سنة أربع وستين وثلثمائة وألف هجرية ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	جمع الناس للحساب والجزاء .
٦	البعث ممكن وليس بمستحيل .
١٠	القرآن يدل على أن جميع الكواكب سائرة .
١٣	لكل من الشمس والقمر مدار يسبح فيه .
١٥	السفن البرية والسفن الهوائية .
١٩	تأتى الساعة بفتة والناس لا يشعرون .
٢٠	خروج الخلق من الأجداث .
٢٢	ما يتمتع به أهل الجنة من مأكل ومشارب .
٢٣	شهادة الأيدى والأرجل على المجرمين يوم القيامة .
٣٠	ما ينبغي للرسول أن يكون شاعرا .
٣٢	عاقبة من أعرض عن النظر فى آيات ربه .
٣٤	تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى قومه .
٣٦	دليل القدرة فى الأنفس والآفاق .
٣٩	تنزيهه سبحانه عما لا يليق به .
٤٢	قسمه تعالى بملأكتكه بأن الإله واحد .
٤٤	الدنيا بيت فرشه الأرض وسقفه السماء .
٤٥	الدليل على الحشر والنشر وقيام الساعة .

الصفحة	المبحث
٤٧	مقاتلهم في القرآن .
٤٩	يحشر الظالمون مع من على شاكلتهم في المعاصي .
٥١	يوم القيامة يتخاصم الأتباع والرؤساء من أهل الضلال .
٥٦	وصف خمر الجنة .
٥٩	سمر أهل الجنة في الجنة .
٦٠	اغتياب المؤمنين بما آتاهم ربهم من النعم .
٦٣	وصف شجرة الزقوم .
٦٤	تقليد الأبناء للآباء .
٦٥	تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قومه ليسوا يبدع في الأم .
٦٨	تفريع إبراهيم لقومه على عبادة الأصنام .
٧١	عدول قومه عن الحجاج إلى استعمال القوة .
٧٣	طاعة إسماعيل لأبيه في ذبحه تنفيذاً للرؤيا .
٧٦	الذبيح إسحاق أم إسماعيل ؟ .
٧٨	نعم الله على موسى وهارون .
٨١	قصص لوط عليه السلام .
٨٢	قصص يونس عليه السلام .
٨٤	توبيخ المشركين على نسبة البنات إليه سبحانه .
٩٣	بجمل ما حوته هذه السورة .
٩٤	سورة ص .
٩٦	عجب المشركين من قول الرسول : إن الإله واحد .
٩٨	الأسباب التي تمنع في زعمهم أن يكون محمد نبيا .
١٠٤	قصص داود عليه السلام .

الصفحة	المبحث
١٠٧	قضية من قضايا داود التي حكم فيها .
١١٠	الرد على المفسرين فيما قالوه في قصص داود .
١١٤	الحكمة في خلق هذا الكون .
١١٥	ليس من العدل مساواة البر بالفاجر في الجزاء .
١١٧	عرض سليمان للصافنات الجياد والحكمة في ذلك .
١١٩	تسخير الريح لسليمان عليه السلام .
١٢٣	داء أيوب عليه السلام ودواؤه ورفض ما قيل في ذلك نقلا عن اليهود .
١٣٠	وصف نعيم المتقين في ما كلهم ومشاربهم .
١٣٣	محاورة بين رؤساء الضلال وأتباعهم .
١٣٥	الرسول منذر لامسيطر .
١٣٦	الأدلة التي ترشد إلى تبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
١٤١	اعتذار المشركين عن عبادة الأصنام .
١٥٠	تهديد المشركين على أفعالهم القبيحة .
١٥٢	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصح المؤمنين بنصائح .
١٥٣	للسابرين أجرهم بغير حساب .
١٥٦	بشرى من يسمعون القول فيتبعون أحسنه .
١٥٨	صفات الدنيا الموجبة للنفرة منها .
١٥٩	وجوب الإقبال على طاعة الله .
١٦٠	ضرب القرآن الأمثال للناس .
١٦٤	أصيب الأمم الماضية بضروب من العذاب في الدنيا قبل الآخرة .